فتـــح مكـــــة

دروس وعـــبـــــر

إعداد

د/ فواز علي بن جنيدب الدهاس

جامعة أم القرى

بحث مقدم إلى ندوة

مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية ١٤٢٦هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً (٣)﴾

***

المقـــدمة :

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله فجعله شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيرا وجعل فيه أسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً.

اللهم صلى وسلم وبارك على سيدنا وشفيعنا محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وفجر اللهم لهم ينابيع الرحمة والرضوان وألحقنا اللهم بهم غير خزايا ولا محرومين.

أما بعد.

إن مكة المكرمة وقد اختارها المولى تبارك وتعالى بأن جعلها أطهر بقاع المعمورة وشرفها بوجود بيته الحرام الذي جعله مثابة للناس وأمنا بتحقق فتحها على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم بفضل ومنه من الحق تبارك وتعالى ثم بحسن تدبير وحكمة منه صلى الله عليه وسلم في ضوء توجيه إلهي محكم.

لقد تحمل عليه الصلاة والسلام الكثير في سبيل الوصول إلى هذا الهدف الذي عبر عنه الإمام الحافظ ابن القيم الجوزية بقوله: (الفتح الأعظم

الذي أعز الله به دينه ورسوله وجنده وحزبه الأمين واستنقذ به بلده وبيته الذي جعله هدى للعالمين من أيدي الكفار والمشركين وهو الفتح الذي استبشر به أهل السماء وضربت أطناب عزه على مناكب الجوزاء ودخل الناس في دين الله أفواجا) [١].

فإن الإسلام هو دين الله الحق، ورسوله هو الخاتم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ﴾ [٢].

وقال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾[٣].

ويقول: صلى الله عليه وسلم فيما رواه البخاري ومسلم عن جبير ابن مطعم عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((إن لي خمسة أسماء أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب الذي ليس بعده أحد)) [٤].

ومن هنا فإن هذا الدين جاء ليظهر وليعم الدنيا بأسرها لتنعم تحت ظلاله الوارفة بحياة آمنة مطمئنة يأمن المرء فيها على نفسه ودينه، وعقله وماله، وعرضه إلا أن هذه الحياة ما كانت لتذعن هذا الإذعان، وتخضع هذا الخضوع لدين الله إلا بعد ما ابتلى أصحابه ابتلاء شديداً وزلزلوا وهذه سنة

(١) ابن القيم الجوزي: أبي عبد الله محمد بن أبي بكر، زاد المعاد في هدي خير العباد، المكتبة القيمة، القاهرة، ط ١٩٨٩م، ١٦٠/٢.

(٢) القرآن الكريم: آل عمران/١٩ .

(٣) القرآن الكريم: القصص/ ٤٨.

(٤) ابن حجر العسقلاني أحمد بن علي؛ فتح الباري بشرح صحيح البخاري، القاهرة. دار الريان للتراث ط ٢، ١٩٨٧م، ٦٤١/٦؛ النووي: أبو زكريا يحيى بن شرف الدين: صحيح مسلم بشرح النووي القاهرة، دار الحديث ط١، ١٩٩٤، ١٥٥/٨.

الله سبحانه وتعالى في أتباع هذا الدين، قال الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ البَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ (١).

وعلى هذا سارت مسيرة الدعوة الإسلامية، وكانت الحرب سجالاً بينها وبين أعدائها، فإن كانوا قد أصابوا ببدر سبعين من أعدائهم فقد نيل منهم سبعين في أحد، والقرآن يتنزل، ويعالج ويعدهم ويؤملهم أن الغلبة لهم والنهاية لصالحهم؛ قال الله تعالى: ﴿وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ القَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ.....﴾ (٢).

وفي كل مرة يخرج المسلمون من الاختبار أصلب عوداً، وأشد عزيمة، وأصدق إيماناً وما ذلك إلا لشدة ثقتهم بربهم وإيمانهم بموعود الله عز وجل ثقة لم تفارقهم لحظة، وإن كثر الأعداء حولهم، قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَأَى المُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَاناً وَتَسْلِيماً﴾(٣).

ثم شاء الله سبحانه أن يمكن لهذه الفئة التي تحمل هذا الدين، الذي يحمل أتباعه على التقدم والاستعلاء والنصر، والأخذ بزمام الأمور في هذه الحياة، وما ذلك إلا لما علمه الله من صدق إيمانهم، وروح الجهاد التي ملأت عليهم قلوبهم.

---

(١) القرآن الكريم: البقرة/٢١٤.

(٢) القرآن الكريم: آل عمران/ ١٣٩- ١٤٠.

(٣) القرآن الكريم: الأحزاب/٢٢.

هذا الإسلام الذي كان هكذا عبر العصور يحمله جيل إلى جيل، وهو الآن يستعد ليكون له المستقبل كله. هذا الإسلام استطاع أن يفعل هذا لأن الأساس الذي بناه عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم خلال ثلاثة وعشرين سنة كان من القوة بحيث يسع كل العصور [١]. فكانت بدايات هذا الفتح الرباني فيما أنعم الله به على المسلمين يوم الحديبية، وإن كره أناس ذلك، قال الله تعالى: ﴿وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾[٢].

ولكن الله عز وجل سمى ذلك فتحاً مبيناً، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً﴾ [٣]. وهذه الآيات نزلت بعد الحديبية، وقد كانت تمهيداً للفتح الأكبر الذي يقول الله تعالى فيه: ﴿وَقُلْ جَاءَ الحَقُّ وَزَهَقَ البَاطِلُ إِنَّ البَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً﴾ [٤].

ثم تمت النعمة، واكتملت المنة، وإذ بالناس يدخلون في دين الله أفواجاً، وتعبد الدنيا كلها لله، وتعلو راية الإسلام، ويتنزل قول الله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ[١] وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً [٢] فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً [٣]﴾ [٥].

(١) سعيد حوى: الرسول. القاهرة، دار السلام، ط٢، ١٩٩٠م.

(٢) القرآن الكريم: البقرة/٢١٦.

(٣) القرآن الكريم: الفتح/ ١.

(٤) القرآن الكريم: الإسراء/٨١.

(٥) القرآن الكريم: النصر/١- ٣.

وفي هذا الفتح العظيم وما بعده دروس وعبر كثيرة، نتناول بعضها، ولا يمكن حصرها، وهي دروس من تعليم المصطفى عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

وستظل السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم تشكل المحور الذي تدور حوله حركة التدوين التاريخي للتاريخ الإسلامي، بل هي العامل الذي أثر في أحداث الجزيرة العربية عبر عصورها المختلفة أولاً ثم في أحداث العالم الإسلامي ثانياً.

وفتح مكة المكرمة بما فيه من دروس وعبر سيظل من أعظم الوقائع تأثيراً في التاريخ الإسلامي ونقطة تحول مهمة من نقاط التحول في تاريخ الدعوة الإسلامية، فهي الفتح المبين الذي جعله المولى تبارك وتعالى خطاً فاصلاً بين الكفر والضلال، والحق والباطل، والنور والظلام، فعند الحديث عن السيرة النبوية بعمومياتها أو في تفصيلاتها، فإن الباحث ما أن ينتهي في الحديث عن جانب مهم من جوانب السيرة، حتى يرى جانباً آخر يستحق الدراسة والبحث، ومهما انسابت أقلام الكتاب والمؤرخين في تحليل أحداثها وإبراز معالم إعجازها واستخلاص الدروس والعبر منها، إلا أن هناك جوانب أخرى تتراءى للباحث ويرى أنها جديرة بالبحث والدراسة، وهذا بلا شك يبرهن على أن دارسي السيرة النبوية يقفون دائماً أمام أحداثها ودروسها وكأنها جوانب جديدة متجددة تبرهن على صدق نبوته صلى الله عليه وسلم ومعجزاته.

وحسبي أنني نلت شرفاً عظيماً في تناول حدث مهم من أحداث السيرة وأين أنا من هذه الأحداث الذي خطها سيد البشر رسول الأمة ومعلمها عليه

أفضل الصلاة وأتم التسليم.

وقد قسمت بحثي هذا إلى ستة مباحث وهي:

المبحث الأول : معنى الفتح لغة واصطلاحاً.

المبحث الثاني : الحكمة من تأخر الفتح حتى العام الثامن الهجري.

المبحث الثالث: الحديبية: والعبرة من أحداثها.

المبحث الرابع: أحداث الفتح والدروس المستفادة منه.

المبحث الخامس: معاملة قريش والدروس المستفادة منها من حيث:

١- إسلام أبي سفيان.

٢- إعطاء أبي سفيان الأمان وتمييزه بأمان غيره.

٣- صفة دخوله صلى الله عليه وسلم مكة شرفها الله.

٤- خطبته صلى الله عليه وسلم في أهل مكة، مقاصدها والدروس والعبر المستفادة منها.

المبحث السادس : الانتشار السريع للإسلام بعد الفتح

ثم أوجزت ذلك بخاتمة أثبت فيها أهمية هذا الفتح وآيات الإعجاز منه.

***

المبحث الأول

معنى الفتح لغة واصطلاحاً

أولاً: لغة:

جاء في المعجم الوجيز في مادة فتح – يقال: فتح بين الخصمين فتحاً أي قضى، وفي القرآن الكريم ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ (١).

وفتح عليه: هداه وأرشده، وفتح المغلق: أزال إغلاقه، يقال فتح الباب والقفل، ويقال فتح الكتاب: بسط دفتيه، وفتح الطريق: هيأة وأذن بالمرور فيه، وفتح الجلسة: بدأ عملها وفتح لفلان قلبه: اطمأن إليه وباح له بسره، وفتح الله قلبه للأمر: شرحه، وفتح البلد: غلب عليه وتملكه. (٢).

وفي لسان العرب لابن منظور: نرى أن كلمة الفتح هي نقيض لكلمة الإغلاق، أي فتحه يفتحه فتحاً، وافتتحه وفتَّحه فانفتح وتفتح.

وقد قال الجوهري:فُتّحت الأبواب: شُدد للكثرة فتفتحت، وقوله تعالى: ﴿لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ (٣). وقرأت بالتخفيف والتشديد، وبالياء والتاء: أي لا تصعد أرواحهم وأعمالهم إليه، لأن أعمال المؤمنين وأرواحهم تصعد إلى السماء، قال الله تعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ (٤). وقال جل ثناؤه: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ (٥). وقال إن

(١) القرآن الكريم: الأعراف/٨٩.

(٢) المعجم الوجيز: صادر عن مجمع اللغة العربية، طبعة خاصة بوزارة التربية والتعليم، ٢٠٠٠م، ص٤٦٠.

(٣) القرآن الكريم: الأعراف/٤٠.

(٤) القرآن الكريم: المطففين/١٨.

(٥) القرآن الكريم: فاطر/١٠.

أبواب السماء تعني أبواب الجنة، لأن الجنة في السماء.

والدليل قوله تعالى: بعدها ﴿وَلاَ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ﴾[١]. فكأنة قال: لا تفتح لهم أبواب الجنة والعرب تقول: فتحت الجنان: تريد أبواب الجنان، قال الله تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾[٢]. قال الزجاج:المعنى: ما يأتيهم به الله من مطر أو رزق فلا يقدر أحد أن يمسكه، وما يمسك من ذلك فلا يقدر أحد أن يرسله.

والمفتح بكسر الميم والمفتاح: مفتاح الباب، وكل ما فتح به الشيء، قال الجوهري، وكل مستغلق. وستفتح الفتح: سأله. قال الفراء: قال أبو جهل يوم بدر اللهم انصر أفضل الدينين، وأحقه بالنصر، فقال الله تعالى: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الفَتْحُ﴾[٣]. قال ابن إسحاق: معناه إن تستنصروا فقد جاءكم النصر[٤].

قال الفراء: ويجوز إن تستقضوا فقد جاءكم القضاء، وقد جاء التفسير بالمعنين جميعاً، وروى أن أبا جهل قال يومئذ: اللهم اقطعنا للرحم، وأفسدنا للجماعة فأحنه اليوم فسأل الله أن يحكم بحين من كان كذالك، فنُصر النبي صلى الله عليه وسلم وناله هو الحَين وأصحابه، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً﴾ [٥]. قال الزجاج: قضينا لك قضاءً مبيناً أي حكمنا لك

(١) القرآن الكريم: الأعراف/٤٠.

(٢) القرآن الكريم: فاطر/٢.

(٣) القرآن الكريم: الأنفال/١٩.

(٤) ابن منظور: أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم: لسان العرب، دار صادر. بيروت، ط١، ١٩٩١م ٥٣٧/٢.

(٥) القرآن الكريم، الفتح/١.

بإظهار دين الإسلام والنصر على عدوك. قال الأزهري قال قتادة: قضينا لك قضاءً فيما اختار الله لك من مهادنة أهل مكة، وموادعتهم عام الحديبية [١].

وفي القاموس: فتح كمنع ضد أغلق كفتح وافتتح، والفتح الماء الجاري، والنصر كالفاتحة، وافتتاح دار الحرب، والحكم بين الخصمين، والاستفتاح: الإستنصار والمفتاح: آلة الفتح كالمفتح [٢].

ويقول الرازي: فتح الباب فانفتح، وبابه قطع، وفتح الأبواب: شدد للكثرة فتفتحت، واستفتح الشيء وافتتحه بمعنى الاستفتاح والاستنصار، والمفتاح مفتاح الباب، وكل شيء مستغلق، والجمع مفاتيح، ومفاتح وفاتحة الشيء: أوله، والفتاح الحاكم، والفتح النصر [٣].

وفي المصباح: فتحت الباب فتحاً بخلاف أغلقته، وفتحته فانفتح أي فرجته فانفرج. فتح الحاكم بين الناس فتحاً: قضى فهو فاتح والفتاح مبالغة.

وفتح السلطان البلاد غلب عليها وتملكها قهراً، وفتح الله على نبيه نصره، واستفتحت استنصرت[٤].

وفي التاج: والفتح النصر، وفي حديث الحديبية (أهو فتح) أي نصر، وفي قوله تعالى: ﴿فَقَدْ جَاءَكُمُ الفَتْحُ﴾[٥].أي النصر[٦].

(١) ابن منظور: مصدر سابق، ٥٤٠/٢.

(٢) الفيروز أبادي: محمد بن يعقوب: القاموس المحيط. بيروت، دار إحياء التراث، ٢٩٧/١.

(٣) الرازي: محمد بن أبي بكر عبد القادر: مختار الصحاح. بيروت، مكتبة لبنان، ٢٠٥/١.

(٤) المقري: أحمد بن علي: المصباح المنير. بيروت، المكتبة العليمة، ٤٦١/٢.

(٥) القرآن الكريم: الأنفال/١٩.

(٦) الزبيدي: محمد مرتضى الحسين: تاج العروس من جواهر القاموس. مطبعة حكومة الكويت. ١٣٨٩هـ/ ١٩٧٠م، ٥/٧.

وعندما نتبع كل هذه المعاني التي وردت للفظة الفتح كما جاء في قواميس ومعاجم اللغة نجد أن أغلب هذه المعاني متداخل ومتكامل، فهي تدور غالباً في فلك إزالة الإغلاق، والحكم والقضاء، والنصر والتمكين، والإمداد والإنعام، والإظهار والإعلاء، والتفريج، وإزالة الكرب، وشرح الصدر، وسرور النفس، وقرة العين، وفتح الإسلام للبلاد يتحقق به كل ذلك فلا تعارض بين الألفاظ، ففتح الإسلام لبلد ما هو إلا إزالة لإغلاق الكفر، وحواجز الظلام من على بصيرة العباد، وهو حكم الله وقضاؤه بنصر الدين وإعزازه أهله، وهو نصر الله للمؤمنين، وهو إقرار عين المؤمنين بوعد الله المتحقق، وغير هذا كثير من المعاني التي يحملها الفتح الإسلامي.

ثانياً: الفتح: اصطلاحاً:

دارت معاني كلمة الفتح عند علماء الاصطلاح على معان قريبة من المعاني اللفظية السابقة عند أهل اللغة، فيقول بن الأثير في النهاية في معاني فتح:

في أسماء الله: الفتاح وهو الذي يفتح أبواب الرزق والرحمة لعبادة، وقيل معناه الحاكم بينهم، يقال فتح الحاكم بين الخصمين إذا فصل بينهم، وفيه: ((أوتيت مفاتح الكلم...)) جمع مفتاح وهو كل ما يتوصل به إلى استخراج المغلقات التي يتعذر الوصول إليها.

وفي الحديث ((أوتيت مفاتح خزائن الأرض)) أراد ما سهل الله له ولأمته من افتتاح البلاد المتعذرات، واستخراج الكنوز الممتنعات.

وفيه أنه كان يستفتح بصعاليك المهاجرين أي يستنصر بهم.

ومنه قوله تعالى: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الفَتْحُ﴾[١].وفي حديث الحديبية أهو فتح؟ يعنى نصر[٢].

فهذه المعاني تدور حول المحاكمة، إزالة الإغلاق، فتح الأبواب المسددة، حصول النعم الممتنعة، النصر على الأعداء، وتملك أرضهم أو الغلبة عليهم، ومعاني الفتح كلها لا تخرج عن هذا فهي شاملة لكل ذلك.

ولا يبعد أن يكون إطلاق كلمة الفتح على ما يسره الله للمسلمين من الغلبة على الأعداء وتملك أرضهم كفتح مكة مثلاً وغيرها من فتوحات الإسلام، لما فيها من معنى المحاكمة، وكأن الله حكم بين الحق والباطل، والكفر والإيمان، فكان حكم الله فتحاً.. ويقول ابن عباس: ما كنت أدري ما قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الفَاتِحِينَ﴾[٣].حتى سمعت بنت ذي يزن تقول لزوجها: تعال "أفاتحك...." يعني أحاكمك [٤].وحول هذه المعاني دار استخدام لفظة الفتح في القرآن الكريم، وهو ما جاء في أكثر من آية من كتاب الله العزيز، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ القُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾[٥]. أي لأمددناهم وأنعمنا عليهم، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً﴾ [٦]. أي نصراً مبيناً أو قضاءً محكماً، وقوله تعالى: ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا

(١) القرآن الكريم: الأنفال/١٩.

(٢) ابن الأثير: المبارك بن عبد الكريم الشيباني: النهاية في غريب الحديث والأثر، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٧م، ٣٦٥/٣.

(٣) القرآن الكريم: الأعراف/٨٩.

(٤) ابن الأثير: نفس المصدر السابق والصفحة.

(٥) القرآن الكريم: الأعراف/٩٦.

(٦) القرآن الكريم: الفتح/١.

عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾[1]. بمعنى النصر والفتح من الله سبحانه وتعالى، وعليه فإن معنى الفتح بمعنى النصر والغلبة والتمكين أمر شائع الاستخدام في لغة القرآن الكريم، وهذا الأمر أيدته بكثرة آيات القرآن الكريم التي ورد فيها ذكر لفظة الفتح.

***

(١) القرآن الكريم: المائدة/٥٢.

المبحث الثاني
الحكمة من تأخر الفتح حتى العام الثامن الهجري

إن المتتبع لسنة الله عز وجل في أصحاب الدعوات يجد أن المنهج الذي يسيرون عليه من الله تعالى يقضي بالبلاء والتمحيص أولاً ثم النصر والتمكين، فلا يُمكّن لهم حتى يُبتلوا، قال الله تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ﴾[1].بل وذكرهم سبحانه وتعالى بما أصاب الذين من قبلهم، وأن ما حدث لمن سبقهم على درب الدعوة إلى الله تعالى سيحدث لهم ثم تكون الغلبة لدين الله في النهاية، قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ البَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [2]. وعلى هذا مضت مسيرة الدعوة الإسلامية، دولاً وسجالاً بين المسلمين وبين أعدائهم، وهذا وعد الله لهم وعهده الذي عاهدوه عليه، فليس لهم أن تتغير أنفسهم ولا قلوبهم فهذا ما وعدهم الله به قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ المُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ﴾ [3]. فهذا وعد الله وليس فيه أنهم ينتصرون فحسب أو يقتلون عدوهم

(١) القرآن الكريم: العنكبوت/٢.
(٢) القرآن الكريم: البقرة/٢١٤.
(٣) القرآن الكريم: التوبة/١١١.

فقط، إنما جاء فيه أنهم يقتلون ويقتلون، ينالون منهم وينال منهم كذلك، لذا لم يكن عجباً أن تتبع غزوة بدر الكبرى – الفرقان - الذي فرق الله به بين الحق والباطل، التي انكسر فيها الكفر وأهله، واندحر وانكسر عقده، لم يكن عجباً أن تُتبع بغزوة أحد وبها من الجرح للمسلمين ما بها والله عز وجل يذكرهم بالمبدأ الأول، والعهد الذي أخذ على أصحاب الدعوات، ولذا فإن الآيات التي تبعت غزوة أحد قال فيها الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (١).إن نزول هذه الآية بعد معركة أصاب المسلمين فيها قرح وجرح لهو من باب المواساة، والتذكير بالوعد والعهد بأن ينال منكم كما تنالون من غيركم لكن العاقبة لكم والغلبة والنصر والظفر من حظكم فلا معنى إذاً لأن تهنوا أو تحزنوا، وتبعها الحق بآية بل آيات أخر عالجت هذا الموقف، وكلها تذكير بعهد الله وموعوده سبحانه للمؤمنين: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ القَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾(٢).ثم يذكرهم بالمبدأ وهو: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾(٣).

وفي نهاية الآيات نلمح ذلك الربط البديع بين ما حل بهم، وما حل بكل نبي قبلهم، وكل صاحب دعوة سبقهم ليعلمنا أن أصحاب الدعوات جميعاً على نهج ودرب وسبيل واحد لا محيص لهم عنها، قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ

(١) القرآن الكريم: آل عمران/١٣٩.

(٢) القرآن الكريم: آل عمران/١٤٠.

(٣) القرآن الكريم: آل عمران/ ١٤٢.

قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ (١).

إن الأمر يحتاج إلى تربية جهادية عالية قبل التمكين لهم في الأرض، لذا فإن الحق سبحانه كتب على هؤلاء الذين قاموا للدعوة يجاهدون في سبيلها، ويناضلون من أجلها أن يمحصوا أولاً وأن يشتد عليهم البلاء حتى تصفوا نفوسهم، وتتخلص من كل حظ سوى الله سبحانه وتعالى: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ القَوْمِ المُجْرِمِينَ﴾(٢).

فهو سبحانه يبتليهم بل ويشتد عليهم في البلاء حتى يصلوا إلى مرحلة الزلزلة، وعندها يأتي وعد الله لمن آمن به وصدق بذلك يقيناً، ولم تروعه قوة ولا عدة، ولم تذهب عقيدته ما يراه من تكالب الأعداء، وتجمعهم وهذا الأمر حدث للمسلمين في غزوة الأحزاب، فكانوا المؤمنين الثابتين الواثقين بموعود الله بحق، قال تعالى في حالهم وحال عدوهم: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ القُلُوبُ الحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾(٣).

وقوم هذا حالهم، وهذا كربهم وبلاؤهم كيف كان إيمانهم ويقينهم بالله عز وجل وثقتهم بموعودة سبحانه وتعالى؟ لقد سجل الله لهم ذلك: ﴿وَلَمَّا

(١) القرآن الكريم: آل عمران/ ١٤٦.

(٢) القرآن الكريم: يوسف/١١٠.

(٣) القرآن الكريم: الأحزاب/١٠؛ ابن كثير: الحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل: تفسير القرآن العظيم- دار إحياء الكتب العربية. ٤/٤٩٧.

رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَاناً وَتَسْلِيماً﴾[1].فكان الثبات وكان الوفاء، وكان الصدق في العهد الذي عاهدوا الله عليه: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾[2].الأمر الذي لم يكن المسلمون ليصلوا إليه بعد إلا بعد ما تم تمحيصهم تمحيصاً شديداً وإلا بعدما تم إبتلاء النفوس وتمحيص الصدور وهذه سنة الله التي لا تبديل ولا تحويل لها. روى البخاري في صحيحة: أن خباب أتى النبي صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردة وهو في ظل الكعبة، ولقي من المشركين شدة، فقال يا رسول الله ألا تدعوا الله لنا؟ فقعد وهو محمر وجهه فقال: ((لقد كان من قبلكم ليمشط بأمشط الحديد، مادون عظامه من لحم أو عصب ما يصرفه ذلك عن دينه ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق باثنين ما يصرفه ذلك عن دينه، والله ليتِمَّن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضر موت ما يخاف إلا الله)) [3].

إذن فهو الوعد الحق من الله بالظهور والغلبة والتمكين، فما السر وراء هذا العذاب والبلاء الذي يتعرضون له؟ إن ذلك لغاية وعلة ألا وهي التمحيص أولاً ثم التمكين وهذا سر تأخر الفتح الإسلامي حتى تم تمحيص الصف المؤمن تمحيصاً بيناً..

(١) القرآن الكريم: الأحزاب/٢٢.

(٢) القرآن الكريم: الأحزاب/٢٣.

(٣) البخاري: أبي عبد الله محمد إسماعيل، صحيح البخاري، دار الفكر، ١٤٠١هـ /١٩٨١م، ٢٣٩/٤؛ ابن حجر العسقلاني: فتح الباري، ٢٠٢/٧، ابن كثير: مصدر سابق، ٢٥١/١.

وهذا الأمر يزداد وضوحاً عندما تقترب شيئاً ما لمعرفة منهج الرسول صلى الله عليه وسلم في غرسه للجهاد في أصحابه، وكيف تدرج بهم وأعطى كل مرحلة من مراحل الإسلام ما يصلح لها وهذا هو المنهج النبوي الشريف في الجهاد الإسلامي الذي اعتمد على أساس التربية قبل المواجهة – وليس هذا يعني توقف التربية بعد المواجهة فهي مستمرة معها وبعدها وإنما يعني إحكام التربية قبل المواجهة ليكون أهل التربية أهلاً للتمكين.

إن مواجهة العدو لم تكن هدفاً يوماً من الأيام في التربية الجهادية، فالرسول هو القائل: ((لا تتمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية فإذا لقيتموه فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف)) [١].

إنما المواجهة وسيلة لتلك القلوب البشرية التي لا تخضع إلا بالقوة فيمكنها بذلك أن تلين أو تسمع أو وسيلة لتحطيم القوة الطاغية التي تحول بين الناس وبين شريعة الله [٢]. فهو التدرج في المراحل إذن كما سبق أن أشرنا.ولكل مرحلة ما يناسبها حتى يصل المسلمون في النهاية إلى المواجهة الشاملة، ويصلوا إلى مرحلة الإخضاع الكامل للدنيا كلها لله عز وجل ودحر الكفر وأهله فالرسول كان على يقين تام أن من الأساليب الناجحة في غرس الروح الجهادية في نفوس أصحابه إنما هي المرحلية والتدرج.

وذلك على معنى أن تُقطع الطريق على مراحل وأن يكرس الأمر في النفس بالتدرج نظراً لأن هذا الشر ما قطع طريقة إلى النفوس في يوم وليلة وإنما استغرق زمناً طويلاً، وبتر هذا الشر وإحلال الخير مكانه لا يتم ذلك في

(١) النووي. مصدر سابق، ٢٨٨/٦.

(٢) منير محمد الغضبان. المنهج التربوي. القاهرة، الوفاء ، ط١، ١٩٩٤، ١٠/١.

يوم وليلة، وإنما يحتاج إلى زمن طويل مع الحكمة والبصيرة النافذة فكانت المرحلة الأولى وهي مرحلة إصلاح وتهذيب النفس من الداخل مع التركيز على ما ينير العقل، ويقوى البدن باعتبار أن الجانب الداخلي من النفس البشرية هو أساس حركة الجانب الخارجي، فإذا صلح صلحت الجوارح واستقامت، وإذا فسد فسدت الجوارح واعوجت، ففي صحيح مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب))[1].

فهذا حديث النبي صلى الله عليه وسلم يؤكد على أهمية بناء النفس وتنقيتها أولاً لجعلها صالحة لنصر الله وتمكين الله لها في الأرض. وهذا ما وعد الله عز وجل به وعداً بشرطه، قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ﴾ [2].

ولئلا يكون هناك قصور أو نقص في شخصية هذا الصحب الكريم إذ العقل بمثابة المشير أو الوزير عند القلب، وما دام كذلك فلابد أن يكون منيراً مشرقاً ليشير بما فيه الخير والمصلحة، والسداد، وكذلك البدن بمثابة المطية أو المركب لكل من القلب والعقل، وعليه فلابد أن يكون صحيحاً قوياً معافى، كي يتمكن من الحركة وفق ما يشير العقل وما يأمر القلب ثم

(١) النووي: مصدر سابق، ٣١/٦.

(٢) القرآن الكريم: النور/٥٥

كانت مرحلة الصبر والتحمل، والعفو والصفح الجميل[١].

فكان صلى الله عليه وسلم يمر على المعذبين يأمرهم بالصبر والاحتساب فإن موعدهم الجنة، وهذه الأحداث مأثورة ومشهورة ((صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة)) وكثيراً ما كان يرد على من يسأله الدفاع عن نفسه بقتال عدوه فيقول: لم نؤمر بقتال، بل إن الأمر لما اشتد بهم من حيث العذاب والابتلاء الشديد أمرهم بالهجرة، فكانت هجرة الحبشة، ثم هجرة المدينة المنورة، الذي ترتب عليه قيام الدولة الإسلامية، وهي بداية مرحلة القتال التي أذن فيها الله سبحانه وتعالى بالقتال: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [٢].

ثم مرحلة الأمر بالقتال لكل من لا يدين بدين الله، ويصد الناس عن دين الله، حتى يذل للدين ويخضع لله، ويعلو في الأرض منهج واحد، وكتاب واحد، وهو منهج وكتاب الله رب العالمين: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾[٣]. ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾[٤].

وهكذا تدرج النبي صلى الله عليه وسلم بهم وأخذهم مرحلة بعد مرحلة حتى تمكن الجهاد من نفوسهم وصاروا لا يطيقون أن تمر عليهم لحظة

(١) د. السيد محمد نوح: منهج الرسول صلى الله عليه وسلم في غرس روح الجهاد. القاهرة، دار المنار، ١٩٩١م، ١١٣.

(٢) القرآن الكريم: الحج/٣٩.

(٣) القرآن الكريم: التوبة/٣٦.

(٤) القرآن الكريم: الأنفال/٣٩.

بغير عمل جهادي يرضى به الله ورسوله [١].

يقول ابن القيم:

أول ما أوحى إليه ربه تبارك وتعالى أن يقرأ باسم ربه الذي خلق، وذلك أول نبوته فأمره أن يقرأ في نفسه ولم يأمره إذ ذاك بتبليغ ثم أنزل عليه ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ❖ قُمْ فَأَنذِرْ﴾[٢]. فنبأه بقوله اقرأ وأرسله بقوله يا أيها المدثر، ثم أمره أن ينذر عشيرته الأقربين، ثم أنذر قومه، ثم أنذر من حولهم من العرب، ثم أنذر العرب قاطبة، ثم أنذر العالمين، فأقام بضع عشرة سنة بعد نبوته ينذر بالدعوة من غير قتال ولا جزية، ويؤمر بالكف والصفح، ثم أذن له في الهجرة، وأذن له في القتال، ثم أمره أن يقاتل من قاتله، ويكف عمن اعتزله ولم يقاتله، ثم أمره بقتال المشركين حتى يكون الدين كله لله، ثم كان الكفار معه بعد الأمر بالجهاد ثلاثة أقسام، أهل صلح وهدنه، أهل حرب، وأهل ذمة.

فأمر أن يتم لأهل الصلح والعهد عهدهم، وأن يوفى لهم ما استقاموا على العهد، فإن خاف منهم خيانة نبذ إليهم عهدهم ولم يقاتلهم حتى يعلمهم بنقض العهد، وأمر أن يقاتل من نقض عهده ولما نزلت سورة براءة نزلت ببيان حكم هذه الأقسام كلها، فأمره فيها أن يقاتل عدوه من أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية أو يدخلوا في الإسلام، وأمره فيها بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم، فجاهد الكفار بالسيف والسنان، والمنافقين بالحجة واللسان[٣]. فطبيعة هذا الدين والسمة الغالبة عليه هي التدرج، وسير الدعوة

(١) د. السيد محمد نوح: مرجع سابق، ١١٧.

(٢) القرآن الكريم: المدثر/١- ٢.

(٣) ابن القيم: زاد المعاد، ٨١/٢.

وفق سنن الله عز وجل لا تصطدم بها ولا تعطلها إنما تأخذ بها، وتنتظم في ركابها، وإن كان ذلك لا يأتي جمله، ولكنها شيئاً فشيئاً حتى تم النصر.

ومن الطبيعي أن يأتي الإذن بالقتال بعد الأمر بالكف، فهذا مرتبط بطبيعة حركة هذه الدعوة التي تنطلق من الواقع البشرى متدرجة منه إلى الأفق الأعلى من غير تعسف ولا استعجال ولا ركون ويوضح هذا المعنى الأمام الشنقيطي بقوله: وهذه الآية هي أول آية نزلت في الجهاد: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (١). كما قال به جماعات من العلماء وليس فيها من أحكام الجهاد إلا مجرد الإذن لهم فيه ولكن قد جاءت آيات أخرى دالة على أحكام أخر زائدة على مجرد مطلق الإذن.

وقد قال جماعة من أهل العلم أن الله تبارك وتعالى لعظم حكمته في التشريع إذا أراد أن يشرع أمراً شاقاً على النفوس كان تشريعه له على سبيل التدرج، لأن إلزامه بغتة في وقت واحد من غير تدرج فيه مشقة عظيمة، ومن ذلك الجهاد. فأذن فيه أولاً من غير إيجاب بقوله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ﴾ ثم لما استأنست نفوسهم بسبب الأذن فيه أوجب عليهم فقال: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا﴾ (٢).وفيها قتال من قاتلهم ثم أوجب إيجاباً عاماً جازماً في آيات من كتابة بقوله تعالى:﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾(٣). إلى غير ذلك من الآيات(٤).

(١) القرآن الكريم: الحج/٣٩.

(٢) القرآن الكريم: البقرة/٩٠.

(٣) القرآن الكريم: التوبة/٣٦.

(٤) منير محمد الغضبان، المنهج التربوي: ص ١٩.

ويشير سيد قطب إلى سمة بارزة من سمات منهج الدين التربوية بقوله: ومن سماته الواقعية الحركية، فهو حركة ذات مراحل لكل مرحلة وسائل مكافئة لمقتضياتها وحاجاتها الواقعية، وكل مرحلة تسلم إلى المرحلة التي تليها فهو لا يقابل الواقع بنظريات مجردة، كما أنه لا يقابل داخل هذا الواقع بوسائل متجمدة، والذين يسوقون النصوص القرآنية للاستشهاد بها على منهج هذا الدين في الجهاد ولا يراعوا هذه السمة فيه ولا يدركون طبيعة المراحل التي مر بها هذا المنهج وعلاقة النصوص المختلفة بكل مرحلة منها الذين يصنعون ذلك يخلطون خلطا شديداً، ويلبسون منهج هذا الدين لبساً مضللاً ويحملون النصوص ما لا تتحمله من المبادئ والقواعد النهائية، ذلك أنهم يعتبرون كل نص منها كما لو كان نصاً نهائياً يمثل القواعد النهائية في هذا الدين، ويقولون وهم مهزومون روحياً وعقلياً تحت ضغط الواقع البائس لذراري المسلمين الذين لم يبق لهم من الإسلام إلا العنوان، إن الإسلام لا يجاهد إلا للدفاع إذ يحسبون أنهم يسدون إلى هذا الدين جميلاً بتخليهم عن منهجه، وهو إزالة الطواغيت كلها من الأرض جميعاً، وتعبيد الناس لله وحده، وإخراجهم من العبودية للعباد إلى العبودية لرب العباد، [1].

ومن هنا نتبين طبيعة هذا الدين وسماته الحقيقية التي لا تبرح تنفك عنه في حال من الأحوال.

إنه الدين الذي جئ به ليبقى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ولذا شاء الله سبحانه ألا يكون التمكين له في زمن النبوة الأولى عن طريق دفعة إعجاز إلهية أو معجزة ربانية أو خارقة كونية مجردة عن الأسباب والمسببات

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن. القاهرة، الشروق، ط٢٧، ١٩٩٨م، ١٤٣٢/٣.

والوسائل والمنهج، حتى يعلمنا الحق سبحانه وتعالى ويدربنا على طبيعة هذا الدين.

وإلا فقد كان بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ بيعة العقبة وقبل الهجرة من قال له: والله الذي بعثك بالحق إن شئت لنميلن على أهل منى بأسيافنا، ولكنه قال: لم نؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم [1]. ولندع ابن هشام يسرد ما حدث في هذه المبايعة التي عقدها الأنصار مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من رواية كعب بن مالك قال: فاجتمعنا في الشعب ننتظر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جاءنا، ومعه العباس بن عبد المطلب وهو يومئذ على دين قومه إلا أنه أحب أن يحضر أمر بن أخيه ويتوثق له، فلما جلس كان أول متكلم العباس بن عبد المطلب فقال: يا معشر الخزرج قال: وكانت العرب إنما يسمون هذا الحي من الأنصار الخزرج خزرجها وأوسها إن محمداً منا حيث قد علمتم،وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو في عز من قومه، ومنعة في بلده، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه وما نعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه فمن الآن فدعوه فإنه في عزة ومنعة من قومه وبلده.

قال: فقلنا قد سمعنا ما قلت فتكلم يا رسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت.

قال: فتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فتلى القرآن ودعا إلى الله، ورغب في الإسلام ثم قال ((أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه

(١) ابن هشام: أبو محمد عبد الملك: السيرة النبوية، دار التوفيقية للطباعة، مصر؛ ٤٤/٢.

نسائكم وأبنائكم)).

قال: فأخذ البراء بن معرور بيده وقال: نعم والذي بعثك بالحق لنمنعك مما نمنع منه أزرنا فبايعنا يا رسول الله فنحن أهل الحروب وأهل الحلقة ورثناها كابر عن كابر.

قال: فاعترض القول والبراء يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو الهيثم بن التيهان فقال: يا رسول الله إن بيننا وبين القوم حبالاً وإنا قاطعوها – يعني اليهود- فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا.

قال: فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال: ((بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم)) [1].

ولقد أدرك الأنصار منذ اللحظة الأولى علام يبايعون رسول الله صلى الله عليه وسلم.

لقد قال لهم وقتها العباس بن عبادة: يا معشر الخزرج هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل؟ قالوا: نعم. قال: إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس، فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة. وأشرافكم قتلاً أسلمتموه، فمن الآن فدعوه والله إن فعلتم خزى الدنيا والآخرة، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على تهلكة الأموال، وقتل الأشراف فأنتم وذاك فقال القوم: فما لنا بذلك إن وفينا يا رسول الله؟

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، ٤١/٢ وما بعدها.

قال : الجنة . قالوا : ابسط يدك فبسط يده فبايعوه [١].

إذن فرسول الله صلى الله عليه وسلم آواه الله إلى ركن شديد وسواعد قوية، ورجال صادقون، وصارت للإسلام دولة يستطيع أن ينطلق من خلالها.

ولكن ليس آخر المطاف المبايعة وانتهى الأمر، إن النصر والتمكين قد يستغرق سنوات كما أن الصراع بين الحق والباطل يمتد طويلاً، وهذا ما حدث في السنوات الثمانية، وهي المدة التي أمضاها، في المدينة بعد ما بوأها الله له ثماني سنوات في صراع بين الحق والباطل وإعداد لأصحاب الدعوة أصحاب الحق وتهيئة لهم للنصر الحاسم على الباطل، والتمهيد للإزهاق النهائي للباطل والدفع الأخير له.

فانطلقت سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم تجاهد في سبيل الله وفاءً بعهدهم مع الله، وعهد الله معهم هو بيع النفس والمال لله قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ﴾ [٢].

فمضت سرايا الحق تدك وتدمر حصون الباطل وقلاعه، وتزيل الطواغيت من على وجه الأرض جميعاً، ولولا ذلك لفسدت الأرض، ولهدم على أصحاب الحق حقهم: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا

(١) المصدر نفسه، ٤٢/٢.

(٢) القرآن الكريم: التوبة/١١١.

اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (١).

يقول القرطبي في تفسيره لهذه الآية:

أي لولا ما شرعه الله للأنبياء والمؤمنين من قتال الأعداء لاستولى أهل الشرك وعطلوا ما بينه أرباب الديانات من مواضع العبادات، ولكنه دفعهم بأن أوجب القتال ليتفرغ أهل الدين للعبادة، فالجهاد أمر متقدم في الأمم وبه صلحت الشرائع واجتمعت المتعبدات فكأنه قال:أذن في القتال فليقاتل المؤمنون، ثم قوى هذا الأمر في القتال بقوله: ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ﴾ أي لولا القتال والجهاد لتغلب على الحق في كل أمة فمن استبشع من النصارى والصابئين الجهاد فهو مناقض لمذهبه إذ لولا القتال ما بقى الدين الذي يذب عنه، وأيضاً هذه المواضع التي اتخذت قبل تحريفهم وتبديلهم وقبل نسخ تلك الملل بالإسلام إنما ذكرت هذا المعنى أي لولا هذا الدفع لهدم في زمن موسى الكنائس وفي زمن عيسى الصوامع والبيع وفي زمن محمد صلى الله عليه وسلم المساجد(٢).

ووعد الله كذلك للمؤمنين تضمن التضحية فليس كله نصر بل إنه لا يأتي النصر إلا بعد البلاء والوعد سابق ﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾

فمضى الركب وسارت الجيوش الإسلامية تنال من معسكر الشرك مرة، وينال منها أخرى وتمر الأيام دول، والحروب سجال، حتى يأذن الله عز وجل بإعلاء كلمة الحق وإظهار الدين على الدين كله.

(١) القرآن الكريم: المؤمنون/٤٠.

(٢) القرطبي. الجامع لأحكام القرآن. القاهرة، دار الحديث، ط٢، ١٩٩٦م، ٧٥/١٢.

فما أصابه المسلمون من المشركين في بدر في قتلهم سبعين وأسرهم مثلهم ناله المشركون منهم في أحد، قال تعالى: ﴿وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[١].

ثم سرايا وبعوث، وكل ذلك تمهيد للفتح الأكبر ثم الزلزلة الكبرى في الأحزاب أو الخندق وبعد الزلزلة والتمحيص، أنعم الله على المؤمنين المدد ونصر من نصره بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً [٩] إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ القُلُوبُ الحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا [١٠] هُنَالِكَ ابْتُلِيَ المُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً﴾[٢].

وقوله عز وجل: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً وَكَفَى اللَّهُ المُؤْمِنِينَ القِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِياً عَزِيزاً﴾[٣].

وكانت هذه بداية النهاية لأهل الباطل وانكسارهم ولين قناتهم والخضوع للحق وأهله ولذلك فلقد قال بعدها صلى الله عليه وسلم كما روى البخاري: ((الآن نغزوهم ولا يغزوننا نحن نسير إليهم)) رواه البخاري[٤].

وهذا الحديث يحمل في طياته دلائل هامة جداً إنهم أي المسلمون قد تحولوا بذلك من موقف المدافع إلى موقف المهاجم لأعداء الله، وهذا يعني تغير

(١) القرآن الكريم: آل عمران /١٣٩- ١٤٠.

(٢) القرآن الكريم: الأحزاب/ ٩- ١١.

(٣) القرآن الكريم: الأحزاب/ ٢٥.

(٤) ابن حجر: العسقلاني، فتح الباري، ٤٦٧/٧.

موازين القوى لصالح أصحاب الحق مما يجعلنا نقترب شيئاً فشيئاً إلى الفتح الأكبر والنصر المبين.

ثم كان الفتح القريب في الحديبية تمهيداً من المولى تبارك وتعالى للفتح الأعظم، إذ يرى فيه سبحانه لأهل الحق من الخير ما لا يعلمه إلا الله: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لاَ تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً﴾[1].

إن دخول المسجد الحرام يعني النهاية لدولة الكفر والباطل، وهذا ما رآه صلى الله عليه وسلم في المنام ورؤيا الأنبياء حق وهذا يجرنا إلى الحديث عن الحديبية والدروس المستفادة منها.

***

(١) القرآن الكريم: الفتح/٢٧.

المبحث الثالث

الحديبية والعبرة من أحداثها

لقد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم رؤيا في منامة وهو بالمدينة وهي أنه دخل مكة محرماً مع أصحابه آمنين محلقين رؤوسهم ومقصرين وأنه دخل البيت وأخذ مقامة وعرف مع المعرفين.

وما دام رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى هذه الرؤيا ورؤيا الأنبياء حق فلم يخطر ببال معظم الصحابة أن هذا الأمر إلا واقع ذلك العام لاسيما وأنهم تحركوا في ضوء هذه الرؤيا متطلعين ومتشوقين إلى رؤية الكعبة المشرفة والطواف بها [(١)].

لقد خرج صلى الله عليه وسلم بأصحابه في شهر ذي القعدة من العام السادس الهجري معتمراً لا يريد حرباً، واستنفر العرب ومن حوله من أهل البوادي من الأعراب ليخرجوا معه، وهو يخشى من قريش الذي صنعوا أن يعرضوا له بحرب أو يصدوه عن البيت، فأبطأ عليه كثير من الأعراب وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم بمن معه من المهاجرين والأنصار ومن لحق به من العرب، وساق معه الهدي، وأحرم بالعمرة ليأمن الناس من حربه، وليعلم الناس أنه إنما خرج زائراً لهذا البيت ومعظماً له حتى إذا كان بعسفان[(٢)]. لقيه

(١) الواقدي: محمد بن عمر: كتاب المغازي، عالم الكتب، بيروت، ٥٧٢/٢؛ القرطبي: مصدر سابق، ٢٧٦/١٦؛ الصالحي الشامي: محمد يوسف: سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، دار الكتب العلمية. بيروت ط١، ١٤١٤/١٩٩٣، ٥٥/٥.

(٢) عسفان: بلدة تاريخية عامرة بالسكان تقع شمال مكة على بعد ثمانين كيلاً على طريق المدينة. انظر: البلادي: عاتق بن غيث: معالم مكة التاريخية والأثرية، دار مكة للنشر ط١، ١٤٠٠/١٩٨٠، ١٨٨.

بسر بن سفيان الكعبي [١].

فقال: يا رسول الله هذه قريش سمعت بمسيرك فخرجوا معهم العوذ المطافيل[٢] قد لبسوا جلود النمور ونزلوا بذى طوى[٣]. يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبداً، وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قد قدموها إلى كراع الغميم [٤].قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا ويح قريش لقد أكلتهم الحرب ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب فإن أصابوني كان ذلك الذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة فما تطن قريش؟ فوالله لا أزال أجاهدهم على الذي بعثني الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة، ثم قال: صلى الله عليه وسلم من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التي هم بها؟ فقال رجل من سليم: أنا يا رسول الله فسلك بهم طريقاً وعراً أجرل [٥].بين شعاب فلما خرجوا

(١) بسر بن سفيان بن عمرو بن كعب الخزاعي: أسلم سنة ست من الهجرة وشهد الحديبية. انظر: ابن الأثير: أبو الحسن علي بن محمد الجزري: أسد الغابة في معرفة الصحابة، دار المعرفة، بيروت، ط٢، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م، ٢٠٩/١؛ ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة دار الكتب العلمية، بيروت، ١٥٤/١.

(٢) العوذ: الناقة حديثة الولادة.
المطافيل: الإبل التي معها أولادها أنظر: ابن منظور: ٥٠٠/٣، ١٠٢/١١

(٣) هو الوادي الممتد من الحجون وريع الكحل ماراً بجرول حتى يلتقي بوادي إبراهيم في المسفلة. وهو اليوم يعرف ببئر طوى بين القبة وريع أبي لهب بجرول وهو المكان الذي بات فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة فتح مكة. انظر البلادي: مرجع سابق، ١٦٨.

(٤) كراع الغميم: يفتح الغين وهو نقف منقاد من حرة ضجنان بغشاه الرمل وهو مكان منحدر تختلط فيه الحجارة بالرمل وتراه من الطريق إذا أقبلت على عسفان وهو يبعد عنها بحوالي ١٦ كيلا ويبعد عن مكة بأربعة وستين كيلا على طريق المدينة وهو من ديار بني بشر من حرب، انظر: البلادي: مرجع سابق، ٢٠٥و٢٣٠.

(٥) أجرل:وهو الأرض الكثيرة الحجارة انظر: ابن منظور: لسان العرب، ١٠٨/١١.

منه وقد شق ذلك على المسلمين، وأفضوا إلى أرض سهلة عند منقطع الوادي قال رسول الله للناس: ((قولوا نستغفر الله ونتوب إليه فقالوا ذلك، فقال والله إنها للحظة التي عرضت على بني إسرائيل فلم يقولوها)).

قال فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا سلك في ثنية المرار[١]. بالحديبية [٢]. بركت ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: الناس خلأت الناقة فقال: ما خلأت، وما هو لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة ((لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألونني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها)) [٣].

وهكذا اجتمعت قريش تريد منع رسول صلى الله عليه وسلم من الدخول إلى البيت الحرام والرسول معسكر بأصحابه في ثنية المرار بالحديبية ينتظر قضاء الله عز وجل وبدأت المراسلات بين الجانبين، وقبل أن ترسل

(١) ثنية المرُار: بضم الميم وتعرف اليوم بفج الكريمي مهبط الحديبية على طريق مكة جدة القديم والمرار حشيشة مرة تكثر في هذا الموقع.
انظر الحموي: يا قوت بن عبد الله: معجم البلدان، دار صادر بيروت ١٤٠٤/ ١٩٨٤، ٨٥/٢ وكذلك البلادي. عاتق بن غيث: معجم معالم الحجاز، دار مكة للطباعة والنشر، ط١، ١٤٠٢/١٩٨٢م، ٨٠/٨.

(٢) الحديبية: قرية متوسطة سميت ببئر هناك عند مسجد الشجرة التي بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه تحتها وقيل سميت بذلك لشجرة حدباء كانت هناك. بعضها في الحل والبعض الآخر في الحرم وتعرف اليوم بالشميسي غرب مكة على طريق جدة القديم وتبعد عن المسجد الحرام ٢٢ كيلا؛ انظر: البلادي: مرجع سابق، ٢٤٦/٢.

(٣) الواقدي: المغازي، ٥٧٤/٢ وما بعدها؛ ابن هشام: السيرة، ٢٢٣/٣؛ السهيلي عبد الرحمن: الروض الأنف، دار النصر للطباعة، مصر ١٣٩٠/١٩٧٠، ٤٥٥/٦؛ ابن خلدون عبد الرحمن: تاريخ ابن خلدون، دار الفكر، بيروت ط٢، ١٤٠٨/١٩٨٨م، ٤٤٧/٢؛ ابن كثير: البداية والنهاية، دار المعارف بيروت ط٢، ١٩٧٨، ١٦٥/٤.

قريش أحداً جاء بُديل بن ورقاء الخزاعي [١]. في رجال من خزاعة وسألوه صلى الله عليه وسلم ما الذي جاء به؟ فقال: لم نجئ لقتال أحد، فأخبره بُديل أنه ترك كعباً وعامر بن لؤى نزلوا بالحديبية معهم السلاح وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت فقال: له رسول الله صلى الله عليه وسلم إنا لم نجئ لقتال أحد وإنما جئنا معتمرين[٢].

ثم أخبر بُديل قريشا بما رأى، وسمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقام عروة بن مسعود [٣].وقال: يا معشر قريش الست بالوالد؟ قالوا: بلى، قال: أو لستم بالولد؟ قالوا: بلى، قال فهل تتهمونني؟ قالوا: لا قال ألستم تعلمون أني استنفرت أهل عكاظ [٤].فلما أبوا علىّ جئتكم بأهلي وولدي ومن أطاعني؟ قالوا: بلى، قال فإني أعرض عليكم خطة رشد فاقبلوها ودعوني آتيه، فقالوا: أئته، فآتاه صلى الله عليه وسلم فجعل يكلم رسول الله صلى

(١) بديل بن ورقاء بن عبد العزى ابن ربيعه كتب إليه النبي صلى الله عليه وسلم وإلى بسر بن سفيان يدعوهما إلى الإسلام، أسلم يوم فتح مكة ويقول ابن إسحاق أن قريشاً لجئوا إلى داره يوم فتح مكة شهد مع رسول الله فتح مكة وحنين وغزوة تبوك وحجة الوداع وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قد أمره أن يحبس النساء والأموال بالجعرانة بعد غزوة حنين مات قبل النبي صلى الله عليه وسلم.
انظر: ابن سعد محمد: الطبقات الكبرى، دار صاد، بيروت، ٢٩٤/٤؛ ابن الأثير: أسد الغابة، ١٩٧/١؛ ابن حجر: الإصابة، ١٤٦/١.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، ١٦٦/٤.

(٣) عروة بن مسعود بن معتب الثقفي صحابي مشهور. وكان كبيرا في قومه بالطائف تبع أثر رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد عودته من حنين فأدركه قبل أن يصل إلى المدينة فأسلم وعاد إلى الطائف يدعو قومه إلى الإسلام فقتلوه.
انظر ابن سعد: الطبقات، ٣١٢/١؛ ابن الأثير: أسد الغابة، ٢٤٧/٣؛ ابن حجر: الإصابة. ٢٣٨/٤.

(٤) عكاظ: إحدى أسواق العرب بين الخلصة والمبعوث فعكاظ كل الوادي إذا تجاوز العرفاء وتبعد عن الطائف: ٤٥كيلا وما ورد على لسان عروة في استنفاره لأهل عكاظ يعني في حرب الفجار؛ انظر: ابن سعد: مصدر سابق، ٢٣٨/١؛ البلادي: معالم الحجاز، ١٤٧/٦.

الله عليه وسلم والنبي يقول له نحوا من قوله لبديل.

ثم رجع عروة فأخبر قريش بما رأى وسمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحال أصحابه معه فقال: أي قوم والله لقد وفدت على الملوك، ووفدت على قيصر، وكسرى، والنجاشي، والله ما رأيت ملكاً قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمدا، والله إن تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فدلك بها وجهه وجلده وإذا أمرهم بأمر ابتدروه، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، ولا يحدون النظر إليه تعظيماً له، وإنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها [(١)].

الرسول صلى الله عليه وسلم يبعث عثمان بن عفان إلى مكة:

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا عمر بن الخطاب ليبعثه إلى مكة فيبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له، فقال يا رسول الله إني أخاف قريشاً على نفسي، وليس بمكة من بني عدي بن كعب أحد يمنعني، وقد عرفت عداوتي وغلظتي عليها، ولكني أدلك على رجل أعز بها مني عثمان بن عفان، فدعا رسول الله عثمان بن عفان فبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب وأنه إنما جاء زائراً لهذا البيت ومعظماً لحرمته.

فخرج عثمان إلى مكة فلقيه إبان بن سعيد بن العاص [(٢)]. حين دخل مكة أو قبل أن يدخلها فجعله بين يديه فأجاره حتى بلغ رسالة رسول الله

(١) البيهقي أحمد بن الحسين: دلائل النبوة، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٥، ١٠٢/٤؛ السهيلي: الروض الأنف، ٤٥٨/٦؛ ابن كثير: مصدر سابق، ١٦٧/٤.

(٢) إبان بن سعيد بن العاص الأموي كان شديد الخصومة للإسلام أسلم عام السابع للهجرة بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم عاملاً على البحرين رجع إلى المدينة بعد وفاته صلى الله عليه وسلم وتوفى في موقعة أجنادين سنة ثلاثة عشر للهجرة.
انظر: ابن الأثير: أسد الغابة، ٤٢/١؛ ابن حجر: الإصابة، ١٠/١.

صلى الله عليه وسلم فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش فبلغهم عن رسول الله ما أرسله به فقالوا: لعثمان حين فرغ من الرسالة إن شئت أن تطوف بالبيت فطف، قال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله صلى الله عليه وسلم فاحتبسته قريش عندها، فبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين أن عثمان قتل، فقال: صلى الله عليه وسلم والمسلمين أن عثمان قتل، فقال:صلى الله عليه وسلم لا نبرح حتى نقاتل القوم ودعا الناس إلى البيعة فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة، فكان الناس يقولون: بايعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على الموت، وكان جابر يقول بايعنا على أن لا نفر[1].

لقد عبئت بيعة الرضوان النفوس وشحنتها وجعلنها في أعلى درجات الاستعداد النفسي للقتال والمواجهة موقنين بالنصر يؤيدهم في ذلك الرؤيا الحقة لنبيهم صلى الله عليه وسلم، وعندما تكشفت الأمور وجاء التوجيه الإلهي لرسول صلى الله عليه وسلم وعقد الصلح أصبح الصحابة يعيشون في حالة توتر نفسي واضطراب للتطورات المفاجئة في عملية المهادنة كما يبدوا لهم أمام نبي لا ينطق عن الهوى يقول ابن خلدون: بعد كتابة الصلح عظم ذلك على المسلمين حتى تكلم فيه بعضهم وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم علم أن هذا الصلح سبب الأمن للناس وظهور الإسلام وأن الله يجعل فيه فرجا للمسلمين وهو أعلم بما علمه ربه[2]. ومن الملاحظ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد توقف عن مشاورة أصحابه منذ أن بركت القصواء، وقيل أنها خلأت فقال: حينئذ صلى الله عليه وسلم: ما خلأت القصواء، وما ذاك لها

(١) ابن هشام: السيرة، ٢٢٨/٣؛ الكلاعي:الاكتفاء، ٢٣٧.

(٢) ابن خلدون: تاريخ، ٤٤٨/٢.

بعادة، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة.... ثم قال: والذي نفس محمد بيده لا يسألوني اليوم خطة فيها تعظيم حرمات الله تعالى إلا أعطيتهم إياها، ثم زجرها فقامت فولى راجعا على بدء[١].

ولنتابع أحداث الحديبية في القرآن الكريم، وفي السنة النبوية الشريفة لنعلم كيف كانت الحديبية فتحاً مبيناً، وكانت تمهيداً للفتح الأكبر فتح مكة فذكر البخاري في صحيحة ترجمة بعنوان باب غزوة الحديبية وقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً﴾[٢].

وفي سياق أهل السيرة بعد ما استعد رسول الله صلى الله عليه وسلم للقتال وبايعه أصحاب الشجرة ورضي الله عنهم بذلك وسجل ذلك القرآن الكريم. اختار الله لنبيه وللمسلمين الصلح فجاءهم سهيل بن عمرو. قال بن إسحاق: "ثم بعثت قريش سهيل بن عمرو إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقالوا له إئت محمداً فصالحه، ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا، فوالله لا تحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة أبداً فآتاه سهيل بن عمرو [٣]. فلما رآه صلى الله عليه وسلم مقبلاً، قال: ((قد أراد القوم الصلح

(١) الصالحي: السبل والرشاد، ٦٦/٥.

(٢) القرآن الكريم: الفتح/ ١٨.

(٣) سهيل بن عمرو بن عبد شمس القرشي العامري خطيب قريش واحد سادتها في الجاهلية أسر في بدر وقال عمر رضي الله عنه يا رسول الله أنزع ثنيته فلا يقوم عليك خطيباً أبداً؟ فقال: دعه يا عمر فعسى أن يقوم مقاماً تحمده عليه، فكان ذلك المقام أنه بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم أرتجت مكة لما رأت قريش من ارتداد العرب فقام سهيل خطيباً فقال: يا معشر قريش لا تكونوا آخر من أسلم وأول من أرتد والله أن هذا الدين ليمتدن أمتداد الشمس والقمر: في كلام طويل فثبَّت قريش. أسلم يوم الفتح ومات في الشام سنة ١٨هـ.
انظر: ابن الأثير: أسد الغابة ٣٩٦/٢؛ ابن حجر: الإصابة، ١٤٦/٣.

حين بعثوا هذا الرجل)) [١].

بنود المعاهدة:

دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً بن أبي طالب فقال: اكتب "بسم الله الرحمن الرحيم" فقال: سهيل "لا أعرف هذا، ولكن اكتب باسمك اللهم. فقال: صلى الله عليه وسلم: اكتب باسمك اللهم فكتبها، ثم قال: اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم سهيل بن عمرو فقال: سهيل: لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك، فقال: صلى الله عليه وسلم اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو، واصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض، على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يرده عليه، وإنه لا إسلال ولا إغلال[٢]. وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه، فتواثبت خزاعة فقالوا: نحن في عقد محمد وعهده، وتواثبت بنو بكر فقالوا: نحن في عقد قريش وعهدهم، وأنك ترجع عنا عامك هذا فلا تدخل علينا مكة، وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك فأقمت بها ثلاثاً معك سلاح الراكب السيوف في القرب لا تدخلها بغيرها [٣].

---

(١) ابن هشام: السيرة، ٣/٢٣٩؛ السهيلي: الروض الأنف، ٦/٤٦١.

(٢) الإسلال: السرقة، الإغلال: الخيانة، انظر ابن منظور: اللسان، ١١/٥٠٠.

(٣) الصنعاني: المصنف، ٥/٣٣٨؛ ابن هشام: السيرة؛ ٣/١٤٧؛ الكلاعي: الإتقاء؛ ٢/٢٤٠؛ سيد الناس: عيون الأثر، ٢/١٦٧.

وقد ساق مسلم في صحيحة هذه الآثار التي تبين لنا كيف أن خطة الصلح في ظاهرها شديدة على المسلمين. الأمر الذي دفع عمر بن الخطاب أن يعترض عليها ففي حديثه عن البراء بن عازب قال: كتب علي بن أبي طالب الصلح بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين المشركين يوم الحديبية فكتب هذا ما كاتب عليه محمد رسول الله فقالوا: لا تكتب رسول الله فلو نعلم أنك رسول الله لم نقاتلك فقال: النبي صلى الله عليه وسلم لعلي "امحه فقال: ما أنا بالذي أمحاه فمحاه النبي بيده"[1]. رواه مسلم.

وساق حديثاً آخر عن أنس "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعلي اكتب بسم الله الرحمن الرحيم فقال: سهيل أما بسم الله فما ندري ما بسم الله الرحمن الرحيم، ولكن اكتب ما نعرف باسمك اللهم [2]. رواه مسلم.

موقف عمر بن الخطاب رضي الله عنه من الصلح:

روى مسلم في صحيحة من حديث سهل بن حنيف قال: لقد كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية لو نرى قتالاً لقاتلنا، وذلك في الصلح الذي كان بين رسول صلى الله عليه وسلم وبين المشركين فكره المسلمون الشروط التي أملاها سهيل بن عمرو على رسول الله صلى الله عليه وسلم وامتعض الصحابة رضوان الله تعالى عليهم من ذلك أشد الامتعاض فوثب عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أيا رسول الله ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ قال: بلى. قال: أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال: بلى. قال: ففيم نعطي الدنية في ديننا ونرجع، ولما

(١) النووي: صحيح مسلم، ٣٧٦/٦.

(٢) النووي: مصدر سابق، ٣٧٧/٦.

يحكم الله بينا وبينهم؟ فكان جوابه صلى الله عليه وسلم مغلفا بالتوجيه الرباني حيث قال: يا بن الخطاب إني رسول الله.ولن يضيعني الله أبداً. فقال عمر: أوليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به حقا! قال: بلى فأخبرتك إنك ستأتيه العام؟! فقال عمر: لا. قال صلى الله عليه وسلم: فإنك آتيه ومطوف به.ولكن عمر لم تهدأ نفسه بعد، فانطلق إلى أبي بكر فقال: يا أبا بكر ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ قال: بلى. قال: أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال: بلى. قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا ونرجع، ولما يحكم الله بيننا وبينهم. فقال: يا ابن الخطاب إنه رسوله الله ولن يضيعه الله أبداً.

وهكذا كان الوضع النفسي لعمر بن الخطاب من هذا الموقف حتى قال: صلى الله عليه وسلم أيا عمر تراني رضيت وتأبى[1].

فإن كان هذا هو حال بعضهم فما لبثت هذه الحالة النفسية أن سادت بقية أفراد الجيش الإسلامي عندما وجههم صلى الله عليه وسلم بالنحر أو الحلق فتلكئوا في ذلك، يحدوهم الأمل في الوصول إلى مكة والطواف بالبيت، إذ أن معنى الحلق أو التقصير هو العودة إلى المدينة دونما تحقيق ذلك الحلم وما علموا بالسر الإلهي في ذلك.

فدخل صلى الله عليه وسلم إلى خباء زوجته أم سلمه رضي الله عنها فذكر ما لقى من الناس[2]. لكن أم سلمه المرأة الحصيفة الرأي والزوجة المؤمنة تلخص حال هؤلاء بقولها: يا رسول الله لا تلمهم فأنهم قد دخلهم أمر

(١) الصنعاني: المصنف، ٣٣٩/٥.

(٢) الطبري: تاريخ الأمم: ٨/٣؛ ابن الأثير: الكامل، ٢٠٥/٢.

عظيم مما أدخلت على نفسك من المشقة في أمر الصلح ورجوعهم بغير فتح، ثم أردفت ذلك قائلة: يا نبي الله أتحب ذلك؟ أخرج ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بدنك، وتدعوا حالقك فيحلقك. فخرج صلى الله عليه وسلم فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك. نحر بدنه وحلق فلما رأوا ذلك منه قاموا جميعاً فنحروا وجعل بعضهم يحلق لبعض[1].

لقد كان ذلك رأيا سديداً ومشورة مباركة. وفي ذلك ما فيه من الدروس التي يجب أن يعيها نساء المسلمين وهو إستحسان وقبول مشاورة النساء، حتى في أصعب المواقف ما دامت المرأة ذات فكر صائب، وعلم وافر، وأنه لا فرق في الإسلام بين رأي الرجل والمرأة طالما أن الرأي سديد ومحقق للمصالح وهذا لعمري هو عين التكريم للمرأة المسلمة، حيث أخذ نبي هذه الأمة برأيها وتحقق به فضل عظيم ولعل في رأيها أن يفعل صلى الله عليه وسلم ما يراه صوابا فيقتدي به الآخرون فالقدوة العملية أجدى في هذه المواقف الصعبة.

فبدأ سهيل بكتابة العهد بحسب رأيه وكما يريد لا كما يرى الصحابة الذي جلسوا حول رسول صلى الله عليه وسلم وقد أغضبهم تعنت سهيل وإصراره في كثير من بنود المعاهدة، ورسول الله ينظر إليهم ويحاول أن يهدئهم، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يردد بعدما بركت ناقته والله لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها. وفي ذلك تعبير واضح للتوجيه الإلهي بعدم دخول مكة وهو يقول: لقد حبسها حابس الفيل عن مكة.

(١) الصنعاني عبد الرزاق بن همام: المصنف المكتب الإسلامي، بيروت، ١٣٩٠هـ /١٩٧٢م، ٣٤٠/٥؛ السهيلي: الروض، ٤٩١/٦؛ ابن كثير: التفسير، ١٩٧/٤.

فالقرآن إذن اعتبر هذا الصلح بما له وما عليه وما فيه من أمور اعترض عليها صحابي مثل عمر بن الخطاب. اعتبره القرآن فتحاً مبيناً... لقوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً﴾[١].

ذكر السيوطي في لباب النقول في أسباب النزول: سبب نزول الآيات الأولى من سورة الفتح فساق الحديث عن "أنس أنزلت على النبي" ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾[٢].مرجعة من الحديبية فقال النبي صلى الله عليه وسلم لقد نزلت: علىّ آية أحب إليّ مما على الأرض، ثم قرأها عليهم فقالوا: هنيئاً مريئاً لك يا رسول الله، قد بين الله لك ماذا يفعل بك. فماذا يفعل بنا؟ فنزلت: ﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزاً عَظِيماً﴾[٣] متفق عليه [٤].

وهذا الاعتبار لهذا الصلح أنه فتح له دلائله ومغزاه، ولقد كانت سورة الفتح التي نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم عقب عودته من الحديبية تصور الوضع العام للمسلمين بعد هذه الرحلة السلمية إلى مكة وما صاحبها من أحداث خطيرة تصور حال المسلمين ودرجة الانفعال النفسي لديهم وما أنزله الله تبارك وتعالى عليهم من السكينة لأمر غيبي لا يعلمه إلا هو.

لقد جاء افتتاح السورة ببشرى لرسوله الكريم بالفتح المبين والنصر العزيز والامتنان على المؤمنين بالسكينة وتبشيرهم بالمغفرة والثواب ثم بدأت

(١) القرآن الكريم، الفتح/١.

(٢) القرآن الكريم، الفتح/٢.

(٣) القرآن الكريم، الفتح/٥.

(٤) الإمام السيوطي: لباب النقول في أسباب النزول، القاهرة، المكتبة القيمة ط١، ١٩٩٤م، ٣٩٧؛ ابن حجر: فتح الباري، ٥١٦/٧.

السورة تتابع الأحداث كلها التي جرت خلال هذه الرحلة مثل موقف الأعراب من دعوته للخروج معه للحديبية وتباطئهم في ذلك بحجج واهية، وموقف المشركين، وصدهم للمسلمين وبيعة الرضوان ثم يؤكد المولى تبارك وتعالى في آخر السورة للآيبين من الحديبية صدق رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنهم لا محالة داخلين مكة ومعتمرين بها ولكن دون حرب أو سفك دماء آمنين مطمئنين دون خوف أو وجل وذلك بعد أن هيأ لهم بمشيئته من الأمور ما يحقق لهم تلك الرؤيا الصادقة [١] يقول تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لاَ تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً﴾ [٢].

لقد دلت الحوادث المتلاحقة بعد الحديبية أن صلح الحديبية الذي رأى فيه المسلمون غبنا لرغباتهم وحداً لطموحاتهم بقبول ما أصرت عليه قريش بينما رأت فيه قريش نصراً لها ومكسباً تزهوا به أمام القبائل تحمله المسلمون في قوة إيمان وامتثالاً لأوامر رسول الله صلى الله عليه وسلم [٣]. يقول المولى تبارك وتعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾[٤].

لكن ما لم يعلمه الجميع هو أن ذلك الصلح إنما كان جسراً حقيقياً مؤديا إلى فتح مكة فيما بعد وذلك لحكمة بالغة.

(١) قطب: ظلال، ٣٣١٢/٦.

(٢) القرآن الكريم، الفتح/ ٢٧.

(٣) الندوي: السيرة النبوية، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٠١هـ، ٣١٩.

(٤) القرآن الكريم، الفتح/٤.

يقول المولى تبارك وتعالى: ﴿وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾[١].

ثم إن الجائزة الكبرى التي حازها المسلمون من الله سبحانه وتعالى، وهي الرضوان وبيعة الرضوان، والرضوان لهى خير جائزة من الله لعباده، ذكر بن كثير في تفسيره لهذه الآيات: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾[٢]. وساق حديثه عن إياس بن سلمه عن أبيه قال: بينما نحن قائلون إذ نادى منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا أيها الناس البيعة البيعة نزل روح القدس قال: فسرنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو تحت شجرة سمره فبايعناه فذلك قول الله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال: فبايع رسول الله صلى الله عليه وسلم لعثمان بإحدى يديه على الأخرى فقال: الناس هنيئاً لابن عفان يطوف بالبيت ونحن هاهنا، فقال: رسول الله: لو مكث كذا وكذا سنة ما طاف حتى أطوف[٣].

وكان هذا من بركات ورحمات الله على المؤمنين في الحديبية بعد ما علم ما في قلوبهم من صدق الإيمان وإخلاص القصد والتوجه لله رب العالمين فكان: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً﴾[٤].

ثم أخذ القرآن بعد ذلك يكشف للمسلمين سبب كفهم عن قتال القوم، وكيف أن الله عز وجل شاء لهم أن يمنعوا من دخول بيت الله الحرام

(١) القرآن الكريم، البقرة/٢١٦.

(٢) القرآن الكريم، الفتح/١٨.

(٣) ابن كثير: التفسير، ١٩١/٤؛ السهيلي: الروض الأنف، ٤٦١/٦.

(٤) القرآن الكريم، الفتح/١٨.

هذا العام فنزل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً ❖ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ المَسْجِدِ الحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوَهُمْ أَن تَطَؤُوَهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ ...﴾[1].

وهذه الآيات تفيدنا أن الله سبحانه وتعالى اقتضت حكمته ومشيئته للمسلمين أن لا يقاتلوا وأن في ذلك الخير كل الخير للمسلمين.وهذا بيان لأن الله عز وجل يغرس لهذا الدين بيديه سبحانه.

أخرج مسلم عن أنس رضي الله عنه قال: لما كان يوم الحديبية هبط على رسول وأصحابه ثمانون رجلاً في السلاح من جبل التنعيم[2]. يريدون غرة رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذوا فأعتقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ وكانت رحمة الله عز وجل في ترك القتال لعلة وهي دخول أناس كثيرين في دين الله عز وجل وذكر السيوطي في لباب النقول في سبب قوله تعالى: ﴿وَلَوْلا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوَهُمْ أَن تَطَؤُوَهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾.

ذكر الحديث عن أبي جمعة بن سبع قال: قاتلت النبي صلى الله عليه وسلم أول النهار كافراً، وقاتلت معه آخر النهار مسلماً، وكنا ثلاثة رجال

(١) القرآن الكريم، الفتح/٢٤- ٢٥.

(٢) التنعيم وهو جبل شمال مكة فيه الآن مسجد التنعيم (مسجد عائشة رضي الله عنها) يبعد عن مكة ستة أكيال على طريق المدينة السريع. انظر، البلادي: معالم مكة، ٥١.

وسبع نسوة وفينا نزلت الآيات [١].

وكذلك هو فتح مبين يقول صاحب كتاب المنهج التربوي للسيرة النبوية:

لندع الحديث عن الفتح المبين لرسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين، وعلماء الأمة بعدهم وساق حديثاً خرجه البيهقي عن عروة، قال: أقبل رسول الله راجعاً، فقال: رجل من أصحابه ما هذا بفتح لقد صددنا عن البيت وصد هدينا ورد رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلين من المؤمنين كانا خرجا إليه فبلغه ذلك فقال:صلى الله عليه وسلم بئس الكلام، بل هو أعظم الفتوح، قد رضي المشركون أن يرفعوكم بالراح عن بلادهم ويسألونكم القضية، ويرغبون إليكم في الأمان، وقد رأوا منكم ما كرهوا وأظفركم الله عليهم وردكم سالمين مأجورين فهو أعظم الفتوح، أنسيتم يوم أحد إذ تصعدون ولا تلوون على أحد، وأنا أدعوكم في أخراكم؟ أنسيتم يوم الأحزاب ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ القُلُوبُ الحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ ؟ فقال المسلمون: صدق الله ورسوله هو أعظم الفتوح والله يا نبي الله ما فكرنا فيما فكرت فيه ولأنت أعلم بالله وبأمره منا [٢].

وفي الصحيح ما يؤيد ذلك، ففي رواية البخاري عن البراء رضي الله عنه قال: تعدون أنتم الفتح فتح مكة وقد كان فتح مكة فتحاً ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع

(١) السيوطي: لباب النقول، ٣٩٩.

(٢) د. منير محمد الغضبان: المنهج التربوي، ٣٢٦/٢.

عشرة مائة[١].

وهذا نص صريح في أن هذه الغزوة فتح من الله، وأنها هي المقصودة بالفتح في قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً﴾[٢].

بل وتشير غالب الروايات إلى أن هذا الفتح هو أعظم الفتوح في الإسلام لقد كان من مكاسب هذا الصلح أنه كان فتحا في الدعوة فقد روى سعيد بن منصور بإسناد صحيح عن الشعبي في قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً﴾ قال صلح الحديبية الذي قال فيه الزهري: لم يكن في الإسلام فتح قبله أعظم منه، إنما كان القتال حيث التقى الناس فلما كانت الهدنة ووضع الحرب وأمن الناس كلهم بعضهم بعضاً والتقوا وتفاوضوا في الحديث والمنازعة لم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئاً في هذه المدة إلا دخل فيه لقد دخل في تينك السنتين مثل من كان دخل في الإسلام قبل ذلك كله أو أكثر [٣].

ويدلل ابن هشام: على هذا أنه صلى الله عليه وسلم خرج في الحديبية في ألف وأربعمائة، ثم خرج بعد سنتين إلى فتح مكة في عشرة آلاف [٤].

فقد اتاحت هذه الهدنة للمسلمين أن يتفرغوا للدعوة في ظل الأمن والسلام وفي جو من السكينة والهدوء والطمأنينة كما أتاح للفريقين أن يختلط بعضهم ببعض فيطلع المشركون على محاسن الإسلام وما صنع في أهله من العجائب والمعجزات في تهذيب أخلاقهم وتزكية نفوسهم وتطهير

(١) ابن كثير: تفسير، ١٨٢/٤؛ ابن حجر: فتح الباري، ٥٠٥/٦.

(٢) القرآن الكريم، الفتح/١.

(٣) الزرقاني: المواهب اللدنية ٢١١/٢؛ الندوي: السيرة، ٣٢٠؛ الغضبان المنهج التربوي، ٣٢٧/٢.

(٤) ابن هشام، مصدر سابق، ٢٣٤/٣.

عقولهم وحبهم وتوادهم فيما بينهم.

فلم يخف على المشركين أن تعاليم هذا الدين الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم هو الذي فعل هذه الأعاجيب فجعل منهم أمة مختلفة وميزهم بأن كانوا نمطاً من أنماط البشرية غير النمط القديم الذي عهدوه فكان ذلك باعثاً لهم قوي في تفهم الإسلام والاعتراف بتأثيره.

كما كان من نتائج هذا الصلح أنه كان فتحاً في الأرض فقد أمن المسلمون شر قريش فاتجه صلى الله عليه وسلم إلى تخليص الجزيرة العربية من بقايا الخطر اليهودي بعد التخلص من بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة فقد فتح المسلمون حصونهم وغنموا منها مغانم عظيمة.

كما كان فتحاً في الموقف بين المسلمين في المدينة وقريش في مكة وسائر مشركي العرب [١].يقول دروزه: "لا ريب أن الصلح الذي سماه القرآن بالفتح العظيم ليستحق هذا الوصف بل أنه يعد من الأحداث الحاسمة العظمى في السيرة النبوية وفي تاريخ الإسلام وقوته وتوطده أو بالأحرى من أعظمها فقد اعترفت قريش بالنبي صلى الله عليه وسلم والإسلام وقوته وكيانه واعتبرتهم أندادا لهم بل دفعتهم عنها بالتي هي أحسن، لقد أثبتت الأحداث صدق إلهام محمد صلى الله عليه وسلم فيما فعل في الحديبية وأيده القرآن وأظهرت عظم الفوائد المادية والمعنوية والعسكرية التي عادت على المسلمين إذ قووا في عيون القبائل وبادر المتخلفون من الأعراب بالاعتذار وخفت صوت المنافقين في المدينة وصار العرب يفدون على النبي صلى الله عليه وسلم من أنحاء قاصيه [٢].

(١) قطب: ظلال: ٣٣١٦/٦.

(٢) دروزة: محمد عزت: سيرة الرسول، المكتبة العصرية/ بيروت ١٤١١، ٣٥٢/٢.

ووصلت رسله إلى ملوك وأمراء البلاد المجاورة في الجزيرة العربية وخارجها.

وقد تكشفت الأيام فيما بعد عن ذلك الخير الذي خبأه الله للمسلمين وراء هذا الصلح وهو الفتح الأكبر لمكة وتطهيرها من الأوثان، فقد كان صلح الحديبية سبباً مباشراً في الفتح وهذا يتبين لنا بمراجعة بنود المعاهدة التي اتفق عليها الطرفان، وبالتحديد البند المقتضى لدخول من شاء من العرب في حلف من شاء فمن أراد أن يدخل في عهد محمد صلى الله عليه وسلم دخل، ومن أراد أن يدخل في عهد قريش دخل، فكان من أثر ذلك أن دخلت خزاعة في حلف رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخلت بنو بكر في حلف قريش، وكانت القبيلتان في نزاع وقتال متواصل والأحقاد في الصدور مشتعلة لم تنطفئ بعد حتى بعد إبرام هذا الحلف. وهذا ما يجرنا إلى الحديث عن فتح مكة.

***

المبحث الرابع

أحداث الفتح والدروس المستفادة منه

أسباب الفتح:

وذلك أن بني بكر بن عبد مناة بن كنانة عدت على خزاعة، وهم على ماء لهم بأسفل مكة يقال له الوتير[١].وكان الذي هاج ما بين بني بكر وخزاعة أن رجلاً من بني الحضرمي اسمه مالك بن عباد، وحلف الحضرمي يومئذ إلى الأسود بن رزن، خرج تاجراً فلما توسط أرض خزاعة عدوا فقتلوه وأخذوا ماله، فعدت بنو بكر على رجل من خزاعة فقتلوه، فعدت خزاعة قبيل الإسلام على بني الأسود بن رزن، وهم فخر بني كنانة وأشرافهم سلمى وكلثوم وذؤيب فقتلوهم بعرفه عند أنصاب الحرم [٢].

قال بن إسحاق: وحدثني رجل من بني الديل قال: كان بنو الأسود بن رزن يودون في الجاهلية ديتين ديتين ونودى دية دية لفضلهم فينا.

قال بن إسحاق: بينما بنو بكر وخزاعة على ذلك حجز الإسلام بينهم، وتشاغل الناس به فلما كان صلح الحديبية بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وقريش كان فيما شرطوا لرسول الله، وشرط لهم، كما حدثني الزهري أنه من أحب أن يدخل في عقد رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) الوتير: شعاب جنوب غرب مكة بطرف حدود الحرم تبعد عن مكة ١٦ كيلا وهي قديما من ديار خزاعة. البلادي: معالم مكة التاريخية، ٣٢٠.

(٢) ابن هشام: السيرة، ٣/٤ وما بعدها؛ ابن خلدون: التاريخ، ٤٥٧/٢.

فليدخل، ومن أراد أن يدخل في عقد قريش فليدخل، فدخلت بنو بكر في عقد قريش، ودخلت خزاعة في عقد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال بن إسحاق: فلما كانت الهدنة اغتنمها بنو الديل من بني بكر من خزاعة، وأرادوا أن يصيبوا منهم ثأراً فخرج نوفل بن معاوية الديلي[1] في بني الديل، وهو يومئذ قائدهم، وليس كل بني بكر تابعة حتى بيت خزاعة على الوتير – ماء لهم- ورفدت بني بكر قريش بالسلاح، وقاتل معهم من قريش من قاتل بالليل مستخفياً [2].

وكان هذا الفعل من قريش خطأً فادحاً عندما أعانت حلفاءها من بنى بكر على خزاعة حليفة المسلمين بالخيل والسلاح والرجال، وهجم بنو بكر وحلفاؤهم على قبيلة خزاعة عند ماء يقال له الوتير وقتلوا أكثر من عشرين من رجالها ولما لجأت خزاعة إلى الحرم الآمن، ولم تكن متجهزة للقتال لتمنع بنى بكر منه قالت لقائدهم: يا نوفل إنا قد دخلنا الحرم، إلهك فقال: نوفل لا إله اليوم يا بني بكر أصيبوا ثأركم، عندئذ خرج عمرو بن سالم الخزاعي في أربعين من خزاعة حتى قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة وأخبروه بما كان من بنى بكر، وبمن أصيب منهم، وبمناصرة قريش بنى بكر عليهم [3].

(١) نوفل بن معاوية بن عروة الديلي الكناني شهد بدراً والخندق مع المشركين أسلم وشهد الفتح وحنينا ونزل المدينة ومات بها في خلافة معاوية بن أبي سفيان.
انظر: ابن الأثير: أسد الغابة، ٢٦٣/٤؛ ابن حجر: الإصابة، ٢٥٨/٦.

(٢) ابن هشام: السيرة، ٤/٤؛ الطبري: تاريخ الأمم، ١١٠/٣؛ ابن الأثير: الكامل، ٢٣٩/٢.

(٣) الواقدي: المغازي، ٧٨١/٢ وما بعدها؛ ابن هشام مصدر سابق: ٧/٤؛ على بن محمد الصلابي: السيرة النبوية دار الإيمان. القاهرة ٢٠٠٢م. ٥٧٥/٢.

ووقف عمرو بن سالم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس في المسجد بين أظهر الناس فقال:

يا رب إني ناشد محمداً ... حلف أبينا وأبيه الأتلدا
قد كنتم ولدا وكنا والدا ... ثمت اسلمنا فلم ننزع يدا
فانصر هداك الله نصرا اعتدا ... وادع عباد الله يأتوا مددا
فيهم رسول الله قد تجردا ... إن سيم خسفاً وجهه تربدا
في فيلق كالبحر يجري مزبدا ... إن قريشاً أخلفوك الموعدا
ونقضوا ميثاقك المؤكدا ... وجعلوا لي في كداء رصدا
وزعموا أن لست أدعوا أحداً ... وهم أذل وأقل عددا
هم بيتونا بالوتير هجدا ... وقتلونا ركعاً وسجدا

قال: له صلى الله عليه وسلم: نصرت يا عمرو بن سالم، لا نصرني الله إن لم أنصر بنى كعب، ولما عرض السحاب من السماء قال: إن هذه السحابة لتستهل بنصر بنى كعب[1].

يعني هذا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يرى نصرة عمرو بن سالم واجبة عليه أوجبها ما بينهما من عهد وعقد، فقد دخلت خزاعة في حلف النبي صلى الله عليه وسلم، وقد عاونت قريش بنى بكر على خزاعة وبهذا تكون قد نقضت العهد المبرم في الحديبية. وهذا ما شعرت به قريش نفسها بعدما صنعت هذا الخطأ فحاولت أن تتداركه، ولكن دون جدوى، فأرسلت أبا سفيان ليحاول أن يتلافى حماقتهم التي فعلوها، وعندما وصل أبو سفيان إلى

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، ٢/٧٣٠.

المدينة، ودخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرض حاجته أعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يجبه، فاستعان بكبار الصحابة كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي، حتى يتوسطوا بينه وبين رسول الله فأبوا، جميعاً فعاد أبو سفيان إلى مكة من غير أن يحظى بأي اتفاق أو عهد ومما يذكر أنه عندما نزل في المدينة ودخل على ابنته أم حبيبة أم المؤمنين رضي الله عنها وأراد أن يجلس على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم طوته عنه فقال يا بنية أرغبت بهذا الفراش عني أم بي عنه؟ قالت: بل هذا فراش رسول الله وأنت مشرك نجس قال: والله لقد أصابك بعدي شر [1].

لقد كان هذا يحق التطبيق العملي لإيثار المسلم لعقيدته على كل شيء في هذا الوجود ولو كان ذوى القربى منهم مصداقاً لقول الحق تبارك وتعالى: ﴿لاَ تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [2].

ومن هنا عزم رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن يغزو مكة وقد ساعده على هذا العزم أسباب منها:

١- قوة جبهة المسلمين الداخلية في المدينة وتماسكها، فقد تخلصت الدولة الإسلامية من غدر اليهود وتم القضاء على خطر يهود قينقاع والنضير وقريظة وخيبر وتيماء وفدك ووادي القرى.

(١) ابن هشام: السيرة، ٩/٤؛ الطبري: تاريخ الأمم، ١١١/٣؛ ابن الأثير: الكامل، ٢٤١/٢؛ ابن القيم: زاد المعاد، ١٦١/٢.

(٢) القرآن، المجادلة/ ٢٢.

٢- ضعف جبهة الأعداء في الداخل وفي مقدمة هؤلاء المنافقون الذين فقدوا الركن الركين لهم، وهم يهود المدينة، فهم أساتذتهم الذين يوجهونهم ويشيرون عليهم.

٣- كانت الغزوة بعد أن ضعفت قريش اقتصادياً وبعد أن قويت الدولة الإسلامية اقتصادياً فقد فتح المسلمون خيبر وغنموا منها غنائم وأموالاً كثيرة.

٤- اهتم صلى الله عليه وسلم بتطوير القوة العسكرية التي تعاظمت لازدياد عدد المسلمين بسبب الانتشار السريع للإسلام عقب صلح الحديبية فبدأ بإرسال السرايا في فترة الصلح، وبذلك أصبحت متفوقة على قوة مشركي قريش، حيث العدد والعدة والروح المعنوية.

٥- انتشار الإسلام في القبائل المجاورة للمدينة، وهذا يطمئن القيادة حين تتخذ قرار المهاجمة.

٦- قيام السبب الجوهري الشرعي لغزو مكة، وهو نقض قريش للعهد والعقد[1].وانطلق الرسول يستعد لفتح مكة، وهو يعلمنا في كل تصرفاته وحركاته وسكناته فقه الأخذ بالأسباب المادية أو المعنوية، وفي فتح مكة تتجلى هذه السنة واضحة، فقد أخذ بكافة الأسباب الممكنة حتى يتم له الفتح. ومنها:-

كتمان أمره في بادئ الأمر فقد أخذ بمبدأ السرية التامة والكتمان الشديد حتى عن أقرب الناس إليه وهو أبو بكر أقرب أصحابه إلى نفسه،

(١) الصلابي: السيرة النبوية، ٢/٥٧٨.

وزوجته عائشة أحب النساء إلى قلبه، فلم يعرف أحد شيئاً عن أهدافه الحقيقية ولا باتجاه حركته، ولا بالعدو الذي ينوى قتاله، بدليل أن أبا بكر لما سأل ابنته عائشة عن مقصد رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت: ما سمى لنا شيئاً، وكانت أحياناً تصمت وكلا الأمرين يدل على أنها لم تعلم شيئاً عن مقصده [١].

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم الناس فيما بعد أنه سائر إلى مكة وكان يدعوا ربه أن يتم له كتمان سره عن قريش، وألا يظهر أمره بقوله الدائم ((اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها))[٢].

ولقد أتم الله المنة على رسوله وأجاب دعوته، ولما حاول حاطب بن أبي بلتعة إفشاء أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قريش، أحبط الله هذا الأمر، وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فأدرك الرسالة وأرسل في طلبها وأخذها، أصحابه عليَّ والزبير قبل أن تصل إلى أهل مكة، وحفظ الله أمر رسوله فلم يشعر به أحد من أهل مكة [٣].

وكانت هذه زلة من حاطب بن أبي بلتعة غفرت له بحضوره بدراً. وفي ذلك عبرة للشباب المسلم أنه لا معصوم إلا من عصمه الله تعالى، وقد تقع الزلة والخطيئة ممن هم في موقع الولاية والمسئولية، والذين هم أصحاب الأسرار العامة والخاصة، ومثل هذه الخطيئة تستحق القتل، فهي بمثابة الخيانة

(١) ابن هشام: ١٠/٤، ابن القيم: زاد المعاد، ١٦٢/٢؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ٧٣٥/٢.

(٢) ابن كثير:المصدر السابق٢/ ٧٣٥.

(٣) ابن هشام: مصدر سابق، ١١/٤؛ الطبري: تاريخ الأمم، ١١٤/٣؛ ابن الأثير: الكامل، ٢٤٢/٢؛ ابن القيم: مصدر سابق، ١٦٢/٢؛ ابن كثير: مصدر سابق، ٧٣٥/٢.

العظمى، ولعل هذه الخاصية – حضور بدر – هي التي شفعت لحاطب رضي الله عنه وما أعتقد أن أي عمل في الإسلام اليوم يعدل حضور بدر، إذ أن ذلك وحي من الله تعالى غير أن المعنى العام الذي يفقهه الدعاة هو أن بلاء الرجل وجهاده قد يشفعان له في تخفيف العقوبة لا بإلغائها، وهو ضلال عن سواء السبيل كما ذكره القرآن[١].ومن هنا سار صلى الله عليه وسلم بالجيش حتى نزل بمر الظهران[٢] في عشرة آلاف من المسلمين بعضهم يقول: سبّعت سليم أي كانت سبعمائة، وبعضهم يقول آلفت أي كانت ألفاً سُليم، وفي كل القبائل عدد وإسلام وخرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم المهاجرون والأنصار فلم يتخلف عنه منهم أحد، فلما نزل مر الظهران وقد عميت الأخبار عن قريش، فلا يأتيهم خبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يدرون ما هو فاعل.

***

(١) الغضبان: المنهج الحركي، الأردن، مكتبة المنار، ط١، ١٩٩٣، ١٢٠/٣.

(٢) مر الظهران: واد خصب كان يضم أكثر من ثلاثمائة عين جارية يعرف في عصرنا الحاضر بوادي فاطمة يبعد عن مكة مسافة عشرين كيلاً، انظر: البلادي: معالم مكة، ٢٥٨.

المبحث الخامس

معاملة قريش والدروس المستفادة منها

إسلام أبي سفيان:

وخرج في تلك الليالي أبو سفيان بن حرب وحكيم بن حزام [١]. وبديل بن ورقاء يتحسسون أخبار الناس، وينظرون هل يجدون خبراً أو يسمعون به.

وقد كان العباس لما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم بمر الظهران قال: واصباح قريش، والله لئن دخلها رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة عنوة قبل أن يأتوه فيستأمنوه إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر، قال: فجلست على بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم البيضاء، فخرجت عليها، حتى جئت الأراك، فقلت لعليَ: أجد بعض الحطَابة أو صاحب لبن أو حاجة يأتي أهل مكة فيخبرهم بمكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليخرجوا إليه فيستأمنوه قبل أن يدخلها عليهم عنوة قال: فوالله أني لأسير عليها والتمس ما خرجت له إذ سمعت كلام أبي سفيان وبديل بن ورقاء وهما يتراجعان وأبو سفيان يقول: ما رأيت كالليلة نيراناً قط ولا عسكراً قال: يقول بديل هذه والله خزاعة حمشتها الحرب قال:يقول أبو سفيان خزاعه أذل وأقل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها قال: فعرفت صوته فقلت: يا أبا حنظلة فعرف صوتي فقال:أبو الفضل؟ قال قلت: نعم قال: مالك فداك أبي وأمي؟ قال: قلت:

(١) حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى صحابي قرشي ابن أخي خديجة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها وكان صديقاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم قبل البعثة وبعدها اسلم يوم الفتح. انظر: ابن الأثير: أسد الغابة، ٤٤/٢؛ ابن حجر: الإصابة، ٣٢/٢.

ويحك يا أبا سفيان هذا رسول الله في الناس واصباح قريش والله قال: فما الحيلة فداك أبي وأمي؟ قال: قلت: والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك فاركب في عجز هذه البغلة حتى آتي بك رسول الله صلى الله عليه وسلم فأستأمنه لك، فركب خلفي، ورجع صاحباه. فلما أتيت به رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: اذهب به إلى رحلك فإذا أصبحت فأتني به، فلما أصبحت غدوت به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: له ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك بعد أن تعلم أنه لا إله إلا الله؟ فقال: بأبي أنت وأمي لقد علمت أن لو كان إله مع الله لقد أغنى عني شيئاً بعد.

فقال: ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك بعد أن تعلم أني رسول الله؟ فقال: بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأوصلك، أما هذه فأن في النفس منها شيء حتى الآن فقال: له العباس: ويحك يا أبا سفيان أسلم قبل أن تضرب عنقك فأسلم ثم أمر الرسول صلى الله عليه وسلم العباس أن يحبسه بالمضيق حتى تمر عليه جنود الله، قال العباس: فمرت عليه قبيلة فقال: من هؤلاء؟ فقلت: سليم فقال: مالي ولسليم؟ ثم مرت بنو كعب فقال: من هؤلاء؟ فقلت: بني كعب فقال: مالي ولبني كعب؟ قال: العباس ولا زال كذلك كلما مرت قبيلة سألني عنها فأخبره فيقول: مالي ولبني فلان؟ حتى جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم في كتيبته، وحوله المهاجرون والأنصار معهم السلاح لا يرى منهم إلا الحدق والحديد فقال: سبحان الله ما لأحد بهؤلاء طاقة، ثم قال: والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً فقلت: يا أبا سفيان إنها النبوة فقال: فنعم إذن [1]. ثم إنه قد حسن إسلامه فيما بعد، وقوله فنعم إذن يؤذن بأن النفوس البشرية من حيث قبولها للحق تختلف وتتباين، إنها

(١) ابن هشام: السيرة، ١٢/٤ وما بعدها؛ ابن القيم: زاد المعاد، ١٦٣/٢؛ البيهقي: دلائل النبوة، ٣٣/٥.

النبوة إذن التي تحميها القوة، التي يحوط برسولها رجال شداد أقوياء لا قبل لأحد بهم ولا طاقة فهي إذن النبوة.

ألم تكن هي النبوة وهم يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ويخرجونه منها؟ لقد كانت. هي هي ألم تكن النبوة بحججها وبراهينها؟ نعم. ولكن أناس يريدون النبوة بحدها وحديدها.

إعطاء أبي سفيان الأمان وتميزه بأمان غيره:

هذا ولقد أتت المعاملة الكريمة من الرسول صلى الله عليه وسلم لأبي سفيان بثمارها المرجوة كما أحس رسولنا صلى الله عليه وسلم وهو يميزه عن غيره بقوله من دخل دار أبي سفيان فهو آمن قالها رداً على عمه العباس عندما قال يا رسول الله إن أبا سفيان يحب الفخر فاجعل له شيء فميزه الرسول صلى الله عليه وسلم ولذا فقد انطلق أبو سفيان يخذل الناس ويصرخ فيهم بأعلى صوته، يا معشر قريش هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به، فمن دخل داري فهو آمن، فقامت إليه زوجه هند بنت عتبة فأخذت بشاربه فقالت اقتلوا الحميت الدسم الأحمس[1]. قُبح من طليعة قوم، قال: ويلكم لا تغرنكم هذه من أنفسكم فإنه قد جاءكم ما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبى سفيان فهو آمن، قالوا: قاتلك الله وما تغني عنا دارك، قال: ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد [2].

وهكذا كان الدرس التربوي للنفوس المريضة الهابطة يرفع من شأنها بعد أن تنعم بعافية الإسلام وتستكن بروحه فتكون هي المبادرة إلى الدفاع

(١) الحميت الدسم: البدين، الأحمس : الذي لا خير فيه. انظر: ابن منظور: لسان العرب، ١٢/٢٠٠.

(٢) سيد الناس: عيون الأثر، ٢/٢٣٠.

عنه والدعوة إليه – فقد كان قول رسول الله صلى الله عليه وسلم من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ومن أغلق داره فهو آمن ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن هو لعمري تأليف لهذه القلوب التي غلفها الشرك وران عليها طوال هذه الفترة أراد الرسول أن يعلم هؤلاء درساً جديداً في العفو عند المقدرة ويظهر لهم سماحة الإسلام ويبين لهم أنه لا يبحث عن زعامة سياسية ولا يريد أن يبطش بأعدائه بالأمس الذين أخرجوه وأصحابه من مكة بل دخل مكة على ناقته القصواء خاشعاً لله حتى أن ذقنه تكاد تمس وسط الرحل وهو يقرأ سورة الفتح مستشعراً بنعمة الفتح.

والعجيب في أمر أبى سفيان يوم الفتح أن يكون هو أول طليعة المحذرين لقومه من قتال محمد صلى الله عليه وسلم وأن يكون في مقدمة الداخلين في دين الله أفواجاً يومئذ، وهو الذي لم تخرج غزوة من مكة لحرب رسول الله إلا بإشرافه وتوجيهه وتهييجه.

ولعل الحكمة الإلهية شاءت أن تفتح مكة دون قتال يذكر، وأن يدين أهلها لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهم الذين أخرجوه بدون أي جهد أو مغامرة من المسلمين فتهيأت أسباب إسلام أبى سفيان قبل غيره، وذلك في اللقاء الذي تم بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم عند "مر الظهران" كي يعود إلى قومه فينتزع من رؤوسهم فكرة الحرب والقتال، ويهيئ جو مكة لسلم يكون مآله دفن حياة الجاهلية والشرك، وبزوغ شمس التوحيد والإسلام، ولقد كان من مظاهر التمهيد لهذا ما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم من إعلان أن من دخل دار أبى سفيان فهو آمن، وذلك بعد أن أعلن إسلامه إلى جانب ما فيه من تأليف قلبه على الإسلام وتثبيته عليه، وأنت خبير أن الإسلام هو الاستسلام لأركانه العملية والاعتقادية، ولابد للمسلم بعد ذلك من رسوخ الإسلام والإيمان في قلبه، وإنما يكون ذلك بمداومته على التمسك بمبادئ الإسلام وأركانه، ومن أهم ما يحفزه على المداومة والاستمرار،

تـأليف المـسلمين لقلبـه بمختلـف الوسـائل والأسـباب المـشروعة، ريثمـا تـستقر جـذور الإيمـان في قلبـه ويغـــــدو إسـلامه قويـاً صـلداً لا تهـزه ولا تزعزعـه الأعاصير[١].

بل إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حرص حرصاً قوياً وشديداً على أن تفتح مكة بسلام ودون قتال وقد كان هذا شأنه في هذا الفتح فما إن سمع أن سعد بن عبادة حامل لواء النبي صلى الله عليه وسلم يقول اليوم يوم الملحمة اليوم تستحل الحرمة وأخبره أبو سفيان بذلك حتى قال: كذب سعد، ولكنه هذا يوم يعظم فيه الله الكعبة ويوم تكسى فيه الكعبة، ثم أمر صلى الله عليه وسلم أن ترتكز رايته بالحجون[٢]. وقد نزع صلى الله عليه وسلم الراية منه وأعطاها ولده قيس بن سعد[٣].

الرسول صلى الله عليه وسلم يدخل مكة:

عندما وصل صلى الله عليه وسلم إلى ذي طوى [٤]. وزع المهام فجعل خالد بن الوليد على المجنبة اليمنى، وجعل الزبير على المجنبة اليسرى، وجعل أبا عبيده على الرجالة، وبطن الوادي، وكان أمر النبي صلى الله عليه وسلم في البدء أن لا يقتل المسلمـــون إلا من قاتلهـــم وقد أعطى قريش الأمان مع

(١) د. محمد سعيد البوطي: فقه السيرة. بيروت، دار الفكر، ط٣، ١٩٧٠، ٤٠٤وما بعدها.

(٢) الحجون وهو الجبل الذي تقع بأسفله مقبرة أهل مكة وعرف في التاريخ باسم كداء، انظر البلادي: معالم مكة، ٧٩.

(٣) ابن القيم: زاد المعاد، ١٦٤/٢؛ الشيخ محمد الخضري: نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، القاهرة الحلبي ط١، ١٩٩٤، ١٩٢.

(٤) طُوى بضم الطاء – المعروف (بئر طوى) بحي جرول بين العتيبية وريع أبي لهب قريب من مستشفى الولادة اليوم ويحددها المتقدمون بالوادي الذي يمر ما بين الحجون وريع الكحل ماراً بجرول حتى ينتهي في المسفلة. انظر: البلادي: مرجع سابق، ١٦٨.

أبي سفيان فاستجاب له جمهور الناس وركنوا للأمان والسلم لكن بعض قريش استنفروا أوباشهم وأتباعهم فقالوا نقدم هؤلاء فإن كان لقريش شيء كنا معهم وأن أصيبوا أعطينا الذين سئلتا [1]. فلم علم صلى الله عليه وسلم بذلك نادي أبا هريرة، فقال: يا أبا هريرة ادع لي الأنصار فدعاهم فجاؤا يهرولون فقال: ((يا معشر الأنصار هل ترون أوباش قريش؟ قالوا: نعم. قال: انظروا إذا لقيتموهم غداً أن تحصدوهم حصداً، وأحض بيده ووضع يمينه على شماله وقال: موعدكم الصفا قال: فانطلقنا فما شاء منا أحد أن يقتل أحداً إلا قتله وما أحد منهم يوجه إلينا شيئاً قال فجاء أبو سفيان فقال: يا رسول أبيحت خضراء قريش لا قريش بعد اليوم، فقال: صلى الله عليه وسلم من دخل دار أبي سفيان فهو آمن)) فقالت الأنصار بعضهم لبعض أما الرجل فأدركته رغبة في قرابته ورأفة بعشيرته قال: أبو هريرة وجاء الوحي وكان إذا جاء الوحي، لا يخفى علينا فإذا جاء فليس أحد يرفع طرفه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ينقضي الوحي فلما انقضى الوحي، قال: رسول الله صلى الله عليه وسلم يا معشر الأنصار قالوا: لبيك يا رسول الله قال: قلتم أما الرجل فأدركته رغبة في قرابته، قالوا: قد كان ذاك. قال: كلا إني عبد الله ورسوله هاجرت إلى الله وإليكم، والمحيا محياكم، والممات مماتكم فأقبلوا إليه يبكون ويقولون: والله ما قلنا الذي قلنا إلا الضن بالله ورسوله فقال: إن الله ورسوله يصدقانكم ويعزرانكم، قال فأقبل الناس إلى دار أبي سفيان وأغلق الناس أبوابهم، وأقبل رسول الله حتى أقبل إلى الحجر فاستلمه، ثم طاف بالبيت، قال فأتى على صنم إلى جنب البيت كانوا يعبدونه وفي يد

(١) ابن القيم: مصدر سابق، ١٦٥/٢.

رسول الله صلى الله عليه وسلم قوس، وهو آخذ بسية القوس [١]. فلما أتى عليه جعل يطعنه في عينه ويقول: جاء الحق وزهق الباطل، فلما فرغ من طوافه أتى الصفا فعلا عليه حتى نظر إلى البيت فرفع يديه فجعل يحمد الله ويدعو بما شاء أن يدعو [٢]. رواه مسلم.

ولقد دخلت قوات المسلمين مكة من جهاتها الأربعة في آن واحد، ولم تلق تلك القوات مقاومة، وكان في دخول الجيش من الجهات الأربعة ضربة قاضية لفلول المشركين، حيث عجزت عن التجمع وضاعت منها فرصة المقاومة.

وهذه التدابير الحربية الحكيمة التي لجأ إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما أصبح هو في مركز القوة وأسهمت في نجاح خطة رسول الله صلى الله عليه وسلم لفتح مكة فلم يستطع المشركون المقاومة ولا الصمود أمام الجيش الإسلامي الزاحف إلى أم القرى.

لقد أعلن منع التجول في مكة رسميا عندما قال: صلى الله عليه وسلم من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ومن أغلق عليه داره فهو آمن ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن.

إن هذا الإجراء العسكري الذي تم اتخاذه قبل أربعة عشر قرنا يهدف في الدرجة الأولى إلى الحفاظ على أرواح الناس وإشاعة الأمن في المدينة ومن ناحية أخرى يسهل حركة دخول الجيش الإسلامي إلى قلب المدينة بأمان ودون

(١) بسية القوس: رأسها وقيل ما أعوج من رأسها، انظر ابن منظور: اللسان، ٤١٧/١٤.

(٢) النووي: صحيح مسلم، ٣٦٨/٢.

عرقلة تذكر بينما تحركت فرق الجيش الأخرى من جهاتها الأربع في آن واحد، إنها أسس إجرائية واحترازية حرى بقادة الجيوش أن يتعلموا منها دقة التوقيت والتخطيط والتسامح وهكذا احتل كل فيلق منطقته التي وجه إليها في سلم واستسلام إلا ما كان من المنطقة التي توجه إليها خالد بن الوليد فقد تجمع نفر من متطرفي قريش ومنهم صفوان وعكرمة وسهيل بن عمرو وغيرهم في الخندمة[1]، وتصدوا للقوات المتقدمة بالسهام، وصمموا على القتال فأصدر خالد أوامره بالانقضاض عليهم، وما هي إلا لحظات حتى قضى على تلك القوة الضعيفة وشتت شمل أفرادها، وبذلك أكمل الجيش المسلم قبضته على مكة المكرمة [2].

صفة دخوله صلى الله عليه وسلم مكة شرفها الله:

وقد حوت السنة النبوية نصوصاً تحكى الصفة المتواضعة الخاشعة، التي دخل بها البيت الحرام بعدما انتصر على أعداء الإسلام ففي صحيح البخاري، عن عبد الله قال دخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح وحول البيت ستون وثلاثمائة نصب فجعل يطعنها بعود في يده ويقول: جاء الحق وزهق الباطل، جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد، وفي الحديث الذي يليه عن بن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما دخل مكة أبى أن يدخل البيت وفيه الألهة، فأمر بها فأخرجت فأخرج صورة إبراهيم وإسماعيل وفي أيديهما الأزلام فقال قاتلهم الله لقد علموا ما استقسما بها قط ثم دخل البيت

(١) الخندمة: سلسلة جبال تمتد من شعب عامر قرب المسجد الحرام متجهة إلى الشرق حتى تصل إلى المفجر ويطل عليها اليوم حي الملاوي من الشرق. انظر البلادي: معالم مكة، ٩٧.

(٢) الصلابي: السيرة النبوية، ٥٩٥/٢.

فكبر في نواحي البيت فخرج ولم يصل فيه [١].رواهما البخاري.

على حين كان الجيش الزاحف يتقدم ورسول الله صلى الله عليه وسلم على ناقته تتوج هامته عمامة دسماء [٢]. ورأسه خفيض من شدة التخشع لله لقد إنحنى على رحله وبدا عليه التواضع الجم حتى كاد عثنونه[٣]. يمس واسطة الرحل. إن الموكب الفخم المهيب الذي ينساب به حثيثاً إلى جوف الحرم والفيلق الدارع الذي يحف به تنتظر إشارة منه فلا يبقى في مكة شيء آمن، إن هذا الفتح المبين ليذكره بماض طويل الفصول كيف خرج مطارداً، وكيف يعود اليوم منصوراً مؤيداً، وأي كرامة عظمى حفه الله بها في هذا الصباح الميمون وكلما استشعر هذه النعماء ازداد على راحلته خشوعاً وانحناء ويبدو أن هناك عواطف أخرى كانت تجيش في بعض الصدور فإن سعد بن عبادة زعيم الأوس ذكر ما فعل أهل مكة وما فرطوا في جنب الله، ثم شعر بزمام القوة في يده، فصاح اليوم يوم الملحمة اليوم تستحل الحرمة، اليوم أذل الله قريشا فقال:صلى الله عليه وسلم بل اليوم يوم تعظم فيه الكعبة، اليوم أعز الله فيه قريشاً وأمر أن ينزع اللواء من سعد ويدفعه إلى ابنه مخافة أن تكون لسعد صولة في الناس[٤].

إنه درس عظيم حتى لا يغتر الإنسان بقوته وتأخذه نشوة النصر. وأن الفتح إنما جاء لعزة الإسلام وتشريف الكعبة وتطهيرها وأعلاء صوت الحق بين الناس واستيغاضهم من غفلتهم. فلا يدع الإنسان العنان للنفس بالإنفلات

(١) البخاري: صحيح البخاري، ٩٣/٥؛ ابن حجر: فتح الباري، ٧٠٩/٧.

(٢) دسماء: سوداء، ابن منظور: اللسان ٢٠٠/١٢.

(٣) طرف لحيته: ابن منظور: اللسان، ٢٧٦/١٣.

(٤) ابن سيد الناس: عيون الأثر، ٢٣٢/٢.

من الخشوع والإنقياد لتعليمات الدعوة الحقة وتوجيهاتها والتي جاء الفتح من أجلها لتحرير عقول وقلوب الناس لذلك أراد صلى الله عليه وسلم بكلماته تلك أن يؤسس لنتائج الفتح وأن يكبح جماح النفوس التي قد يكون ملأها الغرور مثل نفس سعد بن عبادة وليحد من جذوة الانتصار والفخر الذي بدأت تستعر في نفسه وربما غيره أيضاً فأخذ اللواء ودفعه إلى ابنه قيس.

خطبته صلى الله عليه وسلم في أهل مكة مقاصدها والدروس والعبر المستفادة منها:

وما هي إلا لحظات حتى أحاطت سيوف الله برقاب أعدائه وطوق الجيش المسلم المنتصر مكة من كل جوانبها، وصار الكفار جميعاً في قبضة النبي صلى الله عليه وسلم وقد اجتمع الجمع الغفير يستمع إلى خطبته، والتي كان فيها، أن وقف عند باب الكعبة قائلاً: (لا إله إلا الله وحده لا شريك له صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدميّ هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج ألا وقتيل الخطأ شبه العمد بالسوط والعصا ففيه الدية مغلظة مائة من الإبل أربعون منها في بطونها أولادها يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم عصيبة الجاهلية وتعظمها بالآباء الناس من آدم وآدم من تراب، ثم تلا قول الله عز وجل ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (١).

(١) القرآن الكريم: الحجرات/١٣.

لقد أعلن أمام التجمع القرشي سمات المجتمع الجديد وشعاره المتمثل في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (١). فلا قيمة لمآثر الجاهلية والإمكان للمفاخرة بالآباء والأجداد ولا أهمية للتباهي بالقبلية والعصبيات والقوميات الزائفة فالميزان في هذا المجتمع هو التقوى والإيمان بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم حارب الإسلام هذه الصور الجاهلية بأشكالها المختلفة ليقيم نظامه الإنساني العالمي في ظل راية واحدة وراية لا إله إلا الله محمد رسول الله (٢).

لذلك اقتطت الخطبة تربية النفوس وإعدادها للدور الذي ينتظرها والمهمة التي سوف تحملها لقد جعل صلى الله عليه وسلم بناء النفوس التي سوف تنهض بالمجتمع وتحمل الأمانة من أهم مهامه فبين لهؤلاء المتجمهرين من حوله معنى الأمانة في موقفه من عثمان بن طلحه ودفعه المفتاح إليهم بقوله خذوها يا بني أبي طلحه تالدة خالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم (٣).

وبين لهم أنهم من تلك اللحظة يحتكمون إلى كتاب الله وسنة رسوله فالأمن الاجتماعي مطلب من مطالب هذا المجتمع الجديد فالناس مؤتمنون على أموالهم وأرواحهم ولكل خارج عن النظام رادع يردعه فبين صلى الله عليه وسلم مقدار دية القتيل الخطأ والقتل العمد ..إلخ، وهم منصتون إلى تلك المبادئ القيمة التي جاءت في كلامه صلى الله عليه وسلم.

---

(١) القرآن الكريم: الحجرات/١٣.

(٢) قطب: ظلال: ٣٣٤٨/٦.

(٣) ابن هشان: السيرة النبوية: ٢٢/٤؛ الندوي: السيرة النبوية، ٣٨٦.

وقد كان كل رجل منهم يشعر بالذنب ويتوجس مما قدمت يداه، لقد طالما أمعنوا في الكفر وناصبوا ذلك الرجل الماثل أمامهم العداء، وما منهم إلا وقد تقول عليه الأقاويل، وها هم أولاء الآن يقفون بين يديه صاغرين، لقد طافت بأذهانهم صور الفاتحين من قبل عبر التاريخ وسمعوا عن هؤلاء الذين يملكون البلاد، ثم يصدرون أوامرهم لجنودهم فتطيح الرؤوس وتتناثر الأشلاء وتسيل الدماء أنهاراً، وربما لا يكون هؤلاء المغلوبون قد أساءوا إلى ذلك الغالب أو حاربوه، أما هم فلهم صفحات سوداء أمام ذلك الرجل الذي يقف الآن يخاطبهم، ولم يطل الأمر والموقف بهم كثيراً فقد سمعوا النبي صلى الله عليه وسلم يخاطبهم يا معشر قريش ما ترون أني فاعل بكم؟ قالوا أخ كريم وابن أخ كريم. فكانت إجابة الرحمة المهداة مع هذا الإستعطاف الرائع، اذهبوا فأنتم الطلقاء.لقد عفا عنهم جميعاً في كلمة واحدة، لقد نسى عداوتهم الجامحة وحروبهم، وأحزابهم، نسى ذلك كله في لحظة [1].صدق الله ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[2].

وهكذا أطلق صلى الله عليه وسلم سراح قريش بهذه الكلمات الموجزة البليغة دون أن يجرح مشاعرهم أو يصادر حرياتهم كما يفعل المنتصرون لقد كان هذا السلوك النبوي سببا في تغيير مسار حياتهم فوقع منهم كل موقع وأصبح ذا أثر كبير في هدايتهم حيث أسلموا فيما بعد جميعاً على فترات وهذا منهج عال في التربية يرسم معالمه معلم البشرية محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم في الدعوة إلى الله ليسير الدعاة والمصلحون على نهجه.

(١) د/ حمزة النشرتي، د.عبد الحفيظ فرغلي وآخرون. موسوعة القصص القرآني. القاهرة، مكتبة النشرتي، ط٢، ٢٠٠١م، ٥٧/٧.

(٢) القرآن الكريم: الأنبياء/١٠٧.

المبحث السادس

الانتشار السريع للإسلام بعد الفتح

لقد كان فتح مكة فتحاً عظيماً على الإسلام والمسلمين، لقد بات طريق دخول الناس في الإسلام أمناً وهادئاً من شاء أن يدخل في الإسلام فسيجد الدولة القوية التي تحميه وتدافع عنه، ومن يجرؤ بعد اليوم أن يعتدى على دولة دانت لها العرب قاطبة والجزيرة العربية، وأشرفت على بيت الله الحرام، وكعبة الله الحرم الآمن، وانتشر الإسلام في أم القرى ومن حولها، ولهذا كان فتحاً عظيماً.

ولقد كان من أثر عفو النبي صلى الله عليه وسلم الشامل عن أهل مكة والعفو عن بعض من أهدر دماءهم أن دخل مكة نساءً ورجالاً، وأحراراً وموالي في دين الله طواعية واختياراً، وبدخول مكة تحت راية الإسلام دخل الناس في دين الله أفواجاً، وتمت النعمة، ووجب الشكر، وبايع رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس جميعاً الرجال والنساء، والكبار والصغار، وبدأ بمبايعة الرجال فقد جلس لهم على الصفا فأخذ عليهم البيعة على الإسلام والسمع والطاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا.

ولما فرغ صلى الله عليه وسلم من بيعة الرجال بايع النساء وفيهن هند بنت عتبة منتقبة متنكرة على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين، ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينه في معروف.

وقد بايعن رسول الله صلى الله عليه وسلم من غير مصافحة، فقد

كان صلى الله عليه وسلم لا يصافح النساء، ولا يمس يد امرأة إلا امرأة أحلها الله له أو ذات محرم منه [١].

ومن ثم بعد ما انتشر الإسلام بمكة كان الانتشار السريع للإسلام خارجها، وذلك من نتائج الفتح المبين، وهكذا صدقت رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم وتحقق وعد الله فظهر دين الله في مكة ثم ظهر في الجزيرة العربية وسمى العام الذي تلا عام الفتح بعام الوفود حيث وفدت قبائل العرب من كل حدب وصوب معلنه إسلامها وهكذا تحقق وعد الله يقول المولى تبارك وتعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً﴾ [٢] فقد ظهر دين الله وانتشر انتشاراً سريعاً في الجزيرة العربية بل وصل صداه إلى خارجها إلى الحبشة ومصر وفارس وأرض الدولة الرومانية.

لقد كان لهذا الفتح أثر عميق في نفوس القبائل العربية فشرح الله صدور الكثير منهم وصاروا يدخلون في دين الله أفواجاً فلقد عرفت قريش لسطوتها وتأثيرها على قبائل العرب فالعديد منهم يربطه مع قريش معاهدات وأحلاف فكانوا يترددون في هذا الأمر إجلالا وإكباراً لمكانتها بين القبائل، وكان بعض القبائل ترى أن مكة لا يمكن أن تغزى من خارجها وكان من بينهم من عاصر حادثة الفيل فكانت قداسة مكة حاضرة في أذهانهم فكانوا يتحدثون عن النبي صلى الله عليه وسلم ويقولون: اتركوه وقومه فإنه أن ظهر عليهم فهو نبي صادق [٣].

(١) الصلابي: السيرة النبوية، ٦٠٥/٢.

(٢) القرآن الكريم: الفتح/ ٢٨.

(٣) الندوي: السيرة النبوية، ٣٩٤

وعندما نرجع إلى تفسير سورة النصر التي نزلت في هذه الفترة: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً﴾[1].

قال القرطبي: ذلك لما فتحت مكة، قالت: العرب أما إذ ظفر محمد بأهل الحرم، وقد كان الله أجارها من أصحاب الفيل فليس لكم به يدان – أي طاقة – فكانوا يسلمون أفواجاً أمة أمة [2].

وقد كان صلى الله عليه وسلم يكثر من قول: (سبحان الله وبحمده استغفر الله وأتوب إليه) وذلك بعد الفتح ونزول هذه السورة، فقالت: له السيدة عائشة رضي الله عنها يا رسول الله أراك تكثر من قول (سبحان الله وبحمده استغفر الله وأتوب إليه) فقال: أخبرني ربي أني سأرى علامة في أمتي فإذا رأيتها أكثرت من قول سبحان الله وبحمده استغفر الله وأتوب إليه فقد رأيتها ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾.فتح مكة ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً﴾

وفي مطلع السورة إيحاء معين لإنشاء تصور خاص عن حقيقة ما يجري في هذا الكون من أحداث، وما يقع في هذه الحياة من حوادث، وعن دور رسول الله، ودور المؤمنين في هذه الدعوة وحدّهم الذي ينتهون إليه في هذا الأمر هذا الإيحاء يتمثل في قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ...﴾ فهو نصر يجئ به الله في الوقت المناسب الذي يقدره في الصورة التي يريدها للغاية التي يرسمها، وليس للنبي صلى الله عليه وسلم ولا لأصحابه فيه كسب وليس

(١) القرآن الكريم: النصر/ ١- ٣.

(٢) القرطبي: الجامع، ٢٢٩/٢٠.

لذواتهم منه نصيب، وليس لنفوسهم منه حظ إنما هو أمر الله يحققه بهم أو بدونهم، وحسبهم منه أن يجريه الله على أيديهم، وأن يقيمهم عليه حراساً ويجعلهم عليه أمناء وهذا هو كل حظهم من النصر والفتح، ومن دخول الناس في دين الله أفواجاً[١].

الكمال دليل النقصان:

وقد كان من الدلالات لهذا الفتح المبين – أيضاً- أن الدين قد كمل، والنعمة قد تمت، وأن الرسول قد أدى أمانته وبلغ رسالته، وهذا إيذان بانتهاء المهمة، فقد نزلت الآيات بهذا المعنى في يوم عرفة في حجة الوداع من السنة العاشرة يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً﴾ [٢]. وهي إشارة بليغة من المولى تبارك وتعالى إلى نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بأنه قد أكمل لهم الإيمان فلا يحتاجون إلى زيادة أبداً وقد أتمه الله فلا ينقصه أبداً وقد رضيه الله فلا يسخطه أبداً. [٣]. وهذا ما فهمه بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم من تنزيل سورة النصر وعن عمر رضي الله تعالى عنه قال أنزلت سورة النصر ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ على رسول الله صلى الله عليه وسلم وسط أيام التشريق من السنة نفسها وهي آخر سورة نزلت من القرآن فعرف أنه الوداع فأمر راحلته القصواء فرحلت ثم قام يخطب الناس [٤].

(١) سيد قطب، مرجع سابق، ٣٩٩٦/٦.

(٢) القرآن الكريم، المائدة/ ٣.

(٣) البخاري: صحيح ١٢/٥٠؛ ابن كثير - التفسير: ١٢/٢.

(٤) ابن كثير: مصدر سابق، ٥٦/٤.

وروى البخاري عن بن عباس قال: كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فقال: بعضهم لم تدخل هذا الفتى معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال: إنه ممن قد علمتم فدعاهم ذات يوم ودعاني معهم قال: وما رأيته دعاني يومئذٍ إلا ليريهم منى فقال: ما تقولون في ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً﴾ حتى ختم السورة؟ فقال بعضهم أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا.وقال: بعضهم لا ندري. أولم يقل بعضهم شيئاً، فقال لي: يا بن عباس اكذا تقول؟ قلت: لا، قال: فما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلمه الله له، إذا جاء نصر الله والفتح – فتح مكة فذلك علامة أجلك – فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا – قال عمر: ما أعلم منها إلا ما تعلم[1]. رواه البخاري.

وكانت المنة الكبرى من الله بالتمكين للمسلمين في الأرض كما وعدهم وبأن دانت لهم الدنيا بأسرها وهذا مصداق وعد الله لهم وصدق الله ورسوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ﴾ [2].

***

(١) البخاري: مصدر سابق، ٩٤/٦، ابن حجر: فتح الباري، ٦١٣/٧.

(٢) القرآن الكريم: النور/٥٥.

الخاتمـــة

لقد حاولت في هذا البحث المتواضع الإلمام بشيء وجزء من جوانب الفتح الإسلامي لمكة المكرمة – أم القرى – وما ذلك إلا إشارة إلى أهمية مكة من حيث أنها أم القرى كما سماها الله وأن هدايتها وتمركز نور الإسلام فيها دافع قوى، وشديد لنشر هذا النور في ربوع الدنيا بأسرها ومن هنا كان هذا التمهيد من الله سبحانه وتعالى لنبيه وللمؤمنين.

حيث إن جميع الغزوات والسرايا التي أتت قبل فتح مكة ما هي إلا جزء يسير من المشروع الإسلامي الكبير، ومشروع تعبيد الأرض كلها لله، وإزالة طواغيت البغي، وأصنام الهوى حتى يجد الناس أنفسهم أمام نور الله عز وجل يشرح صدروهم وينير قلوبهم وبصائرهم.

ومن هنا ادخر الله للمسلمين هذا الفتح المبين الذي سيتم لهم هذه المهمة ادخره الله هذه السنوات حتى يخرج في حينه وأوانه ليكون أبلغ في الأثر.

وقد تعرضت في البحث لمعاني الفتح في اللغة والاصطلاح حيث دارت كلها حول النصر والتمكين، والحكم والقضاء، وإزالة الإغلاق والسدود، وكلها معاني يشملها الفتح الإسلامي ويحتوي عليها.

ثم تعرضت بعده إلى الحكمة في تأخر الفتح إلى العام الثامن الهجري حيث أراد الله سبحانه وتعالى تهيئة النفوس وإعدادها لتتلقى عن الله سبحانه وتعالى النصر ولتنطلق بعده نحو الدنيا بأسرها حاملة لها مشاعل الهداية الربانية.

وتعرضت بعده إلى صلح الحديبية وكيف كان هو نصر وفتح مبين بالرغم مما يحمله في ظاهره من شدة على نفوس المؤمنين، ولكن الله عز وجل يعلم ما لا نعلم.

وبعده كان الحديث عن فتح مكة الذي رأينا دروسه وعبره، وما يستفاد منه، حيث كان النبي صلى الله عليه وسلم في كل حركة وسكنة معلماً وقائداً وأسوة حسنة، وقدوة طيبة.

فبعد فتح مكة توالت الانتصارات وانتشرت دعوة الحق في شرق البلاد وغربها وأصبح للإسلام ثقافة متميزة تأسست على ثوابت لا تتغير ولا تتبدل وهي كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم فأصبحت حضارة الإسلام حضارة إنسانية عالمية حملها المسلمون من مكة المكرمة متخطين كل الحدود والقيود فأصبح العالم الإسلامي بأسره يتجه نحو مكة المكرمة في كل يوم وليلة خمسة مرات ولا زالت مكة تهدي أبناءها من المسلمين الهداية والرحمة والأمن والطمأنينة وتدعوهم للوحدة والاعتصام بحبل الله كلما اتجهوا إليها في صلاتهم أو وفدوا إليها في عمرتهم أو حجهم.

فالدروس والعبر والعظات تتجلى بوضوح في كل موقف من مواقف النبي المعلم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم فهي مدرسة يتعلم فيها المسلمون النظام والصدق والتخطيط والهدوء والتسامح والوفاء فكل ما حدث في مكة وقبلها في الحديبية يدل على توفيق الله عز وجل للمسلمين ولرسوله صلى الله عليه وسلم وكذلك على حسن القيادة والحكمة في التعامل.

وواجبنا ونحن نتصفح هذه الجزء اليسير من السيرة العطرة أن نهيئ أنفسنا للإقتداء به صلى الله عليه وسلم كي نستطيع نصرة هذا الدين

وترغيب الناس فيه بحسن المعاملة والتخلق بأخلاق الإسلام السمحة يقول المولى تبارك وتعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ فهذه الدروس والعبر ليست قصصا تقرأ بهدف القراءة وحسب، وشغل أوقات الفراغ، بل هي منهج تربوي في كل منحى من مناح الحياة الدعوية، والتربوية، والاجتماعية، والعسكرية، والسياسية ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

***

المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم

ابن الأثير: أبو الحسن علي بن محمد الجزري، ت ٦٣٠هـ

٢- أسد الغابة في معرفة الصحابة، دار المعرفة، بيروت، ط٢، ١٤٢٢/٢٠٠١.

٣- الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، ١٣٨٥/١٩٦٥.

ابن الأثير: المبارك بن عبد الكريم الشيباني أبو السعادات، ت٦٠٦هـ.

٤- النهاية في غريب الحديث والأثر، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت ١٩٩٧م.

البخاري: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل، ت٢٥٦هـ

٥- صحيح البخاري، دار الفكر، ١٤٠١/١٩٨١م.

البلادي: عاتق بن غيث البلادي

٦- معجم معالم الحجاز، دار مكة للطباعة والنشر، ط١، ١٤٠٢/١٩٨٢.

٧- معالم مكة التاريخية، دار مكة للطباعة والنشر، ط١، ١٤٠٠/١٩٨٠.

البوطي: محمد سعيد رمضان

٨- فقه السير، دار الفكر، ط٣، ١٣٩٠/ ١٩٧٠.

البيهقي: أبو بكر أحمد بن الحسين، ت٤٥٨هـ.

٩- دلائل النبوة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٥/١٩٨٥.

ابن حجر العسقلاني: أحمد بن علي، ت٨٥٢هـ

١٠- الإصابة في تمييز الصحاب، دار الكتب العلمية، بيروت،د.ت.

١١- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، الريان، القاهرة، ط٢، ١٩٨٧م.

الحموي: أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله، ت٦٢٦هـ

١٢- معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٤٠٤/١٩٨٤.

الحوي: سعيد

١٣- الرسول صلى الله عليه وسلم دار السلام، القاهرة ط٢، ١٩٩٠م

الخضري: محمد بن عفيفي الباجوري، ت ١٣٤٥هـ

١٤- نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، مصر، د.ت.

ابن خلدون: عبد الرحمن، ت٨٠٨هـ

١٥- ديوان المتبدأ والخبر، دار الفكر، بيروت، ط٢، ١٤٠١/١٩٨١م.

دروزه: محمد عزت

١٦- سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم صور مقتبسة من القرآن الكريم، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان ١٤٠٠هـ.

الرازي: محمد بن أبي بكر بن عبد القادر، ت بعد ٦٦٦هـ

١٧- مختار الصحاح، مكتبة لبنان، بيروت. د.ت

الزبيدي: محمد مرتضى الحسني، ت١٢٠٥هـ

١٨- تاج العروس من جواهر القاموس، مطبعة حكومة الكويت، الكويت١٣٨٥/١٩٦٥.

ابن سعد: محمد بن سعد من منيع اليعمري، ت٢٣٠هـ

١٩- الطبقات الكبرى، دار صادر بيروت، دت.

السهيلي: عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن أبي الحسن، ت٥٨١هـ

٢٠- الروض الأنف. دار النصر. القاهرة، ١٣٩٠/١٩٧٠.

ابن سيد الناس: محمد بن محمد بن محمد اليعمري، ت٧٣٤هـ

٢١- عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، دار ابن كثير بيروت، ط١، ١٤١٣/١٩٩٢م.

السيوطي:جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، ت٩١١هـ

٢٢- لباب النقول في أسباب النزول، المكتبة القيمة. القاهرة. د. ت

الصالحي الشامي: محمد بن يوسف، ت٩٤٢هـ

٢٣- سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٤/١٩٩٣.

الصلابي: علي محمد محمد

٢٤- أصح الكلام في سيرة خير الأنام، دار الإيمان، القاهرة، ط١، ٢٠٠٣م.

٢٥- السيرة النبوية، دار الإيمان، القاهرة، ١٤٢١/٢٠٠٠
الصنعاني: عبد الرزاق بن همام أبو بكر، ت٢١١هـ
٢٦- المصنف، المكتب العلمي، بيروت، ط١، ١٣٩٢/١٩٧٢.
الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير، ت٣١٠هـ
٢٧- تاريخ الأمم والملوك، دار القاموس الحديث، بيروت. د.ت.
عبد الباقي: محمد فؤاد
٢٨- المعجم الفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار إحياء التراث بيروت. د.ت.
الغزالي: محمد
٢٩- فقه السيرة، الريان، القاهرة، ط٨، ١٩٨٧م.
الغضبان: منير محمد
٣٠- التربية الجهادية، مكتبة المنار، الأردن، ط٣، ١٤٢٢/٢٠٠٢.
٣١- المنهج التربوي للسيرة النبوية، المنار، الأردن، ط٢، ١٤١٣/١٩٩٢.
٣٢- المنهج الحركي للسيرة النبوية، المنار، الأردن ط٨، ١٤١٨/١٩٩٧.
٣٣- فقه السيرة النبوية، معهد البحوث العلمية، جامعة أم القرى مكة المكرمة ط٢، ١٤١٣/١٩٩٢.
الفيروز أبادي: محمد بين يعقوب، ت٨١٧هـ
٣٤- القاموس المحيط، دار إحياء التراث العربي، بيروت. د.ت
القرطبي: أبو عبد الله محمد بن أحمد، ت٦٧١هـ
٣٥- الجامع لأحكام القرآن، دار الحديث، القاهرة، ط٢، ١٩٩١م.
قطب: سيد قطب إبراهيم، ت١٣٨٧هـ.
٣٦- في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة، ط٢٧، ١٩٩٨م.
ابن القيم الجوزي: الإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن أبي بكر، ت٧٥١هـ
٣٧- زاد المعاد في هدي خير العباد، المكتبة القيمة، القاهرة ط١، ١٩٨٩م.
ابن كثير: إسماعيل بن عمر عماد الدين، ت٧٧٤هـ
٣٨- البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، ط٢، ١٩٧٨م

٣٩- تفسير القرآن العظيم، الإيمان، القاهرة، ط١، ١٩٩٦م

الكلاعي: أبي الربيع سليمان بن موسى الأندلسي، ت٦٣٤هـ

٤٠- لاكتفاء في مغازي رسول الله – صلى الله عليه وسلم- والثلاثة الخلفاء، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٣٨٩/١٩٧٠.

مجمع اللغة العربية:

٤١- المعجم الوجيز، وزارة التربية والتعليم، القاهرة، ٢٠٠٠م

المقرى: أحمد بن محمد بن علي، ت٧٧٧هـ.

٤٢- المصباح المنير، المكتبة العلمية، بيروت. د.ت

ابن منظور: أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، ت٧١١هـ

٤٣- لسان العرب، دار صادر، بيروت ط١، ١٩٩١م.

النسائي: أبو عبد الرحمن أحمد على بن شعيب، ت٣٠٣هـ

٤٤- تفسير النسائي، مكتبة السنة، القاهرة، ط١، ١٩٩٠م.

النشرتي: د. حمزة وآخرون

٤٥- موسوعة القصص القرآني، مكتبة النشرتي، القاهرة، ط٢، ٢٠٠١م.

نوح: السيد محمد

٤٦- منهج الرسول في غرس روح الجهاد، دار المنار، القاهرة، ١٩٩٠م.

النووي: أبو زكريا يحيى بن شرف الدين، ت٦٧٦هـ

٤٧- صحيح مسلم بشرح النووي، دار الحديث، القاهرة، ط١، ١٩٩٤م.

ابن هشام: أبي محمد عبد الملك المعافري، ، ت٢١٣هـ

٤٨- السيرة النبوية، مكتبة التراث، سوريا. د. ت

الواقدي: محمد بن عمر، ت٢٠٧هـ

٤٩- كتاب المغازي، عالم الكتب. بيروت. د.ت